(صفين والتحكيم)
بين الأيديولوجية المذهبية والواقعية التاريخية

أ.د. عبد الهادي العجمي
كلية الآداب–جامعة الكويت

مقدمة:

مهمة البحث عن الحقائق المجردة في التاريخ الإسلامي، لا تنطلق من النتائج لتبحث عما يؤيدها، بل تنطلق من المقدمات التي يؤيدها البحث المشروع عن الحقائق، وذلك عبر إعادة النظر في شروط الرصد والتدوين والنص والرواية.

ولا شك أن منهج البحث التاريخي في تناوله لأي موضوع إشكالي، يتطلب تقييماً موضوعياً وتفكيكاً مقارناً للروايات والنصوص المدونة والمنقولة، ومن هنا تحديداً يمكننا أن نفهم كيف تحرك المؤرخون، وما هي أسباب ومبررات إظهار نص على آخر أو رواية على أخرى خاصة ما يتعلق منها بالديني والسياسي.

وعليه، تأتي هذه الدراسة لكي تعالج في جزء منها إشكالية أسباب إعادة المؤرخين إنتاج وقعة صفين والقبول بالتحكيم، وتشكيلها في ثنايا النصوص المدونة طبقاً لشروط ودوافع تختلف عن شروط ودوافع تكونها الحقيقي، في محاولة لاستكشاف مدى دقة وسلامة القدرة لدي المؤرخين لاستخدام النص والرواية في صورتها الواقعية بعيداً عن تحكم قضية الديني والسياسي.

ولا شك أن السرد التاريخي الإسلامي في المصادر المتقدمة لأحداث وقعة صفين (الفتنة الكبرى) والتحكيم ، لم يكن توصيفاُ دقيقاً للحقيقة المطلقة، قدر ما كان رصداً للواقع العسكري والسياسي لمعسكريّ العراق والشام ، بحسب وجهة نظر وميل كل مؤرخ ، حيث نزعم أن الرصد التاريخي اللاحق للمعركة وللمفاوضات ولواقعة التحكيم ، جاء انعكاساً لسنوات طويلة من التجاذبات المغزاة أيديولوجيا وسياسياُ بدوافع مختلفة ومتشابكة صنعها الرواة والمؤرخون ، مما أنتج لنا في النهاية مشهداً دعائياً تم توظيفه لإنهاء الملحمة الأكثر دموية في تاريخ الحروب الأهلية الإسلامية المبكرة والتي راح ضحيتها في تقديرات بعض المؤرخين ما يجاوز سبعين ألفًا، ولفهم طبيعة هذا الدور كان عدم التقيد بترتيب الروايات من الأقدم إلى الأحدث أمراً يفرضه الواقع ، وحتى لا نخضع بشكل مباشر بالرؤية والتفسير التقليدي للواقعة.

كذلك تطرح الدراسة تساؤلها، هل تم استخدام الخوارج كأحد أدوات الصراع والدعاية التي وظفت من قبل طرفي الصراع لتسويغ المبررات فيما بعد للقبول بنتائج المعركة، حيث أننا نجد أن عملية التحكيم في النهاية أفرزت وضعاً جديداً للصراع والانقسامات المذهبية، وغيرت "لاحقاً"

قواعد اللعبة السياسية والتاريخية بين المتصارعين، فما بين (الخاسر المنتصر) الذي لم يخضع ولم يغلب معاوية، و(الفائز المنهزم) الذي لم يحقق أهدافه الإمام عليّ، والناقم على الفريقين الخوارج سيدور الصراع.

صفين ٣٦-٣٧هـ: التمازج الديني والسياسي

يورد ابن عساكر (٤٩٩ -٥٧١ هـ = ١١٠٥ -١١٧٦ م) في كتابه إحدى الروايات الاستباقية للصراع (الملحمي) – الذي سيدور لاحقاً – في صفين، وكاد يفني قبائل العرب ومادة الاسلام وكبار قادتها وأشرافها وزعمائها، حيث يشير بالقول" أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لمعاوية " **أتحب عليّا فقال معاوية والله الذي لا إله إلا هو إني لأحبه في الله حبا شديدا "...فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ستكون بينكم هنيهة**"[1]، فكانت...(صفين).

تعد وقعة صفين ، احدى أهم المعارك التي تناولها الكتاب والمؤرخون من أوجه عدة في التاريخ الإسلامي ، متفقين على أن عملية رفع المصاحف التي على إثرها توقفت المعركة أو أنهتها (بوصف أدق) ، كانت نتيجة **خدعة** من جانب معسكر الشام ، وأن عليّ بن أبي طالب ورغم غلبة جيشه قَبِل بها – على الرغم من إدراكه لذلك – وهذا هو الجانب الجدير بالإهتمام – حيث أننا إذا تأملنا السرد التاريخي لأحداث وملابسات وقعة صفين والقبول بالتحكيم والجوانب التي أحاطت بهما قبل وبعد بل وأثناء المعركة ، لوجدنا أن إشكالية وجود منتصر ومهزوم لم تكن لترتقي وتفسر لنا الدوافع الحقيقية أو بمعنى أدق – الواقعية – لرضا الفريقين – في النهاية– بتوقف القتال ومن ثم القبول بالتحكيم الذي سيجري لاحقاً بعد ثمانية أشهر وبعيداً عن أرض المعركة ، بل وبدون ملامح تحدد وبدقة ما الذي سيطرح للنقاش ، هل قضية الخلافة وحدها ؟ أم القصاص من قتلة عثمان؟ أم كلاهما؟ أم إجبار معاوية على القبول بخلافة الإمام عليّ "المنتصر" في المعركة إن صحت مزاعم النصوص والروايات التي صاغها ودونها المؤرخون وفق التوصيف المصدري؟

إن ثمة تساؤلات حقيقية، كان من المفترض على النصوص والروايات والمؤرخين حسمها وبدقة، خصوصاً أنها جرت في حضور أهم وأبرز الرموز الدينية والزعامات القبلية في هذا الوقت " من النصف الأول من القرن الأول الهجري.

وعلى الرغم من أن المصادر تشير إلي تفوق عدد جيش الإمام عليّ وقدرته على الحسم، إلا أنها في المقابل لم تقلل من حجم وقدرة جيش الشام وقياداته، بل إن المصادر التاريخية لم

---

[1] تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م، ج٥٩، ص ١٤٠.

تستطع في البدايات الأولى للمعركة ترجيح كفة على أخرى أو الإشارة إلى انتصار فريق على أخر بل تكاد الدلائل تشير بوضوح أن المعركة كانت متكافئة ومتوازنة بمقاييس الحروب العسكرية في هذا الوقت.

هنا يبرز لنا سياقان نحاول أن نقرأ من خلالهما ثمة تطور المشاهد الواقعية للصراع في المعركة، والتي انتهت بغير حسم، إثر مشهد رفع المصاحف، مع قبول الطرفين لإجراء مفاوضات أفرزت مؤتمراً لا يمكن وصفة إلا بالدعائي للتحكيم –سيجري لاحقاً –وبعد انصراف الجيشين من أرض المعركة، وفي الأردن البعيدة عن نفوذ عليّ والقريبة من نفوذ معاوية [٢]، بل وبقيادات ورموز مشكوك في ولائها من أحد الأطراف.

السياق الأول: القبول بما ورد من أحداث وفق الروايات التاريخية التي أشارت إلى أن جيش الإمام عليّ كان الأقرب للنصر، وأن معاوية لجأ لرفع المصاحف خلوصاً من موقفه الحرج، وشعوره بدنو هزيمة جيشه، وهذا السياق يأتي مستنداً على واقع الأحداث التي رصدها الإخباريون والمؤرخون وتم تدوينها في مصادر التاريخ.

أما السياق الثاني : فهو سياق النقد ، وكذلك التساؤل ، خصوصاً وأن ارتباك المشاهد التاريخية التي تناولت تحديداً عملية التحكيم وما أحاطها ربما يدفعنا للقبول بأنه قد جرى إنتاجها بشكل – ضبابي – حيث تم استخدام الرواية والنص الديني لإحكام السيطرة على ما سواه من نصوص وروايات، خصوصا وثيقة التحكيم التي شُحنت بعبارات وكلمات تؤكد على سلطة القرآن والسنّة، وعدم الانفكاك من فلكيهما ، الأمر الذي ألغى في النهاية سلطة النص السياسي المفترض حضوره ، فهل كانت المشاهد المدونة لصفين والتحكيم ، هي إحدى الحالات التاريخية التي تجاوزتها الروايات والنصوص بتقليديتها وتواطئها ؟

الحقيقة أنه وبعد معركة الجمل التي دارت رحاها بعيداً عن الشام وفي معسكر واحد هو معسكر العراق (بين البصريين و الكوفيين) ، ووسط كبار الصحابة والتي أفرد لها سيف بن عمر (ت٢٠٠هـ) والذي يعد من أهم الإخباريين الاوائل مؤلف كامل هو الفتنة ووقعة الجمل[٣] مقدرا مقتل حوالي خمسة آلاف من جيش الامام على بهذه المعركة حيث يقول " **كان قتلى**

---

[٢] لاستيضاح مدى الصورة الاعلامية التي تناولها المؤرخون عن شخصية معاوية يمكن الرجوع لدراسة معاوية المؤرخين، خالد محمد جلال كشك، ط١، دار النشر: Verlag Dr Muller Actiengesellschaft & Co. .vdm.verlag.de. 2008.

[٣] انظر: سيف بن عمر الأسدي التَّمِيمي (المتوفى: ٢٠٠هـ)، الفتنة ووقعة الجمل، تحقيق أحمد راتب عرموش، ط٧، دار النفائس، ١٩٩٣م.

الجمل حول الجمل عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي[٤] " ؛ يمكن القول ثمة تطور عميق كان يجري نحو التسريع بالصدام بين عليّ وبين معاوية ، معلناً عن نفسه بكل وضوح ، بحيث كان صراعاً مكشوفاً على قدرة كل طرف على تثبيت ما تحت يده من أسباب القوة والسلطة ، خصوصاً أن انتصار عليّ في الجمل على الرغم من (جيشه المنهك وخسائره الكبيرة) ، وحشده هذا الكم الهائل من أبناء وزعامات القبائل المقاتلة معه ، ولّد لدى معاوية مخاوف – مبررة – من أن الخطوة التالية حتماً ستكون المسارعة بإلحاق الشام في ركب نفوذ وسيطرة الإمام وإلحاقها ببقية المناطق الخاضعة لسلطة الخلافة .

ولا شك أن معاوية بعد معركة الجمل كان يُعتبر الصوت الانشقاقي الأول بعيداً عن سلطة الخلافة، خصوصا أنه الوحيد بعد أحداث الجمل الذي كان يمتلك القوة لرفض البيعة.

وقبل الدخول على مقدمات المعركة التي استعرت بين الطرفين من المهم استعراض بعض الأقوال التي تناولت المسرح الجغرافي الذي شهد أكبر حرب أهلية بين المسلمين في القرن الأول الهجري.

حيث يشير "ياقوت الحموي (٥٧٤ –٦٢٦ هـ = ١١٧٨ –١٢٢٩ م) أن "**صفين موضع بقرب الرقة، على شاطئ الفرات** "[٥]، أما الدينوري (؟ – ٢٨١هـ،؟ – ٨٩٤م) فيذكر أنها " **قرية خراب من بناء الروم** "[٦] ، في حين يذكر ابن خلكان (٦٠٨ – ٦٨١ هـ = ١٢١١ – ١٢٨٢ م) أنها " **أرض بالقرب من قلعة جعبر**[٧] ، ليحسم ابن حوقل (٠٠٠ – بعد ٣٦٧ هـ = ٠٠٠ – بعد ٩٧٧ م) وابن العديم (٥٨٨ – ٦٦٠ هـ = ١١٩٢ – ١٢٦٢ م) موقع المكان ؛ فيقول الأول " **الموقع الذي جرت به المعركة كان على ربوة عظيمة ، فيها بيت مال "علي بن أبي طالب" للفيء** " [٨] ويذكرها الثاني بقوله " **مدينة عتيقة من مدائن الأعاجم في أرض قنسرين على شاطئ الفرات** "[٩]

---

[٤] سيف بن عمر، الفتنة ووقعة الجمل، ص ١٧٩.

[٥] من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، انظر معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٣، ص٤١٤.

[٦] منها إلى الفرات غلوة أي مقدار رمية سهم، انظر الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة، جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م، ج١، ص١٦٧.

[٧] وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٣٢٩.

[٨] صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨ م، ج١، ص٢٢٦.

[٩] فيما بين منبج والرقة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، د.ت، ج١، ص٢٨٠.

أما ابن كثير (٧٠٠ –٧٧٤هـ) فيشير – إشارة مقصودة –لغياب العديد من الصحابة للوقعة تجنباً للفتنة التي يرد لفظها مبكراً عنده حيث يقول" **هَاجَتِ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَاتُ الألوف فَلَمْ يَحْضُرْهَا مِنْهُمْ مِائَةٌ، بَلْ لَمْ يَبْلُغُوا ثَلَاثِينَ**" [١٠].

فعلى امتداد هذا الواقع سنتمكن لاحقاً من ملاحظة هذا الحشد من النصوص والروايات التي تماهت وتمازجت في سياق (الديني والسياسي) في ديالكتيك متشابك وسريع بين الخليفة علىّ (٣٥ –٤٠ هـ| ٦٤١ ٦٥٥ م) ومعاوية (٤١ –٦٠ هـ–٦٨١–٦٦١ م) المضي نحو الصدام

يذكر الدينوري وابن أعثم ا لكوفي شعراً لكعب بن جعيل: يقول فيه

" **أرى الشام تكره ملك العراق ... وأهل العراق لهم كارهونا...**

وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا [١١]

إن أهم ما يلاحظ في هذين البيتين–ومع يقيننا بخطأ تفسير الصراع استناداً لما كان بين الفرس والروم – إلا أننا نلحظ أن رموز الصراع التاريخي، صراع الامبراطوريات القديمة، كان حاضراً وبقوة في هاتين البيتين، صراع متجذر، وممتد لما قبل ظهور الإسلام، صراع يستحضر في طياته فارس والروم.

يذكر ابن أعثم الكوفي (٠٠٠ –نحو ٣١٤ هـ = ٠٠٠ –نحو ٩٢٦ م) أن عليّاً لما فرغ من الجمل ودخل الكوفة " كتب إلى معاوية كتابا جاء فيه: **بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن صخر، أما بعد! فإن بيعتي لزمتك ... وقد بايعني الناس بيعة عامة، من رغب عنها مرق ومن تأخر عنها محق، فاقبل العافية واعمل على حسب ما كتبت به–والسلام** [١٢]، وعندما ورد الكتاب لمعاوية وقرأه قال للرسول: " **ارجع إلى صاحبك بغير جواب فإن رسولي في أثرك إن شاء الله تعالى** " [١٣] .

---

[١٠] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦ م، ج٧، ص ٢٥٣.

[١١] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٦٠. كذلك أحمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي، أبو محمد (المتوفى: نحو ٣١٤هـ)، الفتوح، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٩١ م، ج٢، ص٥٣٤.

[١٢] الفتوح ج٢، ص ٤٩٥.

[١٣] ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ج٢، ص ٤٩٥.

ويقول ابن سعد (١٦٨-٢٣٠ هـ/ ٧٨٥ -٨٤٥م) في كتابه " **خرج علي يريد مُعَاوِيَة بْن أبي سُفْيَان ومن معه بالشام، فبلغ ذلك معاوية فخرج ومن معه من أَهْل الشّام** " [١٤] .

أما ابن الجوزي، فيرجع الخلاف بين الطرفين والخروج لصفين لسبب بعيد عن مقتل عثمان حيث يذكر أن معاوية بلغه أن عليّاً قَالَ: **لا أقره على عمله، فقَالَ: والله لا ألي له شيئاً ولا أبايعه، ولا أقدم عليه، فبعث إليه عليّ يدعوه إلى الطاعة فأبى، حينئذ عزم علي على الخروج إلى صفين**[١٥] .

ويقحم نصر ابن مزاحم(٠٠٠ - ٢١٢ هـ = ٠٠٠ - ٨٢٧ م) صاحب كتاب وقعة صفين والمتهم بتشيعه الشديد نظرية المؤامرة سريعاً مستنداً على الصورة السوقية التي صنعها المأثور التاريخي عن الثنائي (المعارض لعليّ) معاوية وعمرو بن العاص حين يتناول خروج معاوية وعمرو للقتال بصفين وتقديمهم لفرية مسئولية مقتل الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٥ م) لمعسكر جيش العراق حيث يشير ابن مزاحم في روايته " **لما أراد معاوية السير إلى صفين قال لعمرو بن العاص: إني قد رأيت أن نلقي إلى أهل مكة وأهل المدينة كتاباً نذكر لهم فيه أمر عثمان ، فإما أن ندرك حاجتنا ، وإما أن يكف القوم عنا. قال عمرو: إنما نكتب إلى ثلاثة نفر: راض بعليّ فلا يزيده ذلك إلا بصيرة ، أو رجل يهوى عثمان فلن نزيده على ما هو عليه ، أو رجل معتزل فلست بأوثق في نفسه من عليّ** ". فكتبا:" **أما بعد فإنه مهما غابت عنا من الأمور فلن يغيب عنا أن عليّا قتل عثمان** [١٦] .

على أن ابن مزاحم يُصرح في موضع أخر بنفي مسئولية عليّ عن مقتل عثمان وعلى لسان معاوية أيضاً فيقول: **قيل لمعاوية " علام تقاتل عليّاً، وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته؟ قال لهم: لا أدعى أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته، ولكن خبروني عنكم، ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلوما؟ قالوا: بلى. قال: فليدع إلينا قتلته فنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه**" [١٧] .

---

[١٤] الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم تحقيق زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم –المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٨، ج٢، ص٢٣.

[١٥] المنتظم في تاريخ الملوك والامم، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩٢، ج٥، ص ٩٧.

[١٦] وقعة صفين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط٢، القاهرة، ١٣٨٢م، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، ص٦٣.

[١٧] وقعة صفين، ص ٨٥.

وفي نفس سياق تثبيت الحق لعليّ ونفيه عن معاوية نرى الدينوري يقول على لسان معاوية وعمرو حين استدعى الأول الأخير " حيث قال معاوية لعمرو " **قُتِل عثمان، وأظهر الفتنة، وفرق الجماعة، فقال عمرو: وان كان كذلك، فليست لك مثل سابقته وقرابته**"[١٨]، بل والغريب محاولة النص والرواية عند الدينوري تصدير المشهد وكأنه تنافس واقتطاع مبكر للمغانم بين القيادات الشامية، فيشير أن عمراً قال لمعاوية " **ماذا تري لي بعدها؟ أي بعد هزيمة على في (معركة لم تكن جرت حتى الان) فيرد معاوية " حكمك" فقال عمرو: اجعل لي مصر**[١٩].

ومع الإصرار التاريخي على تحميل عمرو مسئولية قيام معاوية برفض بيعة عليّ والخروج لصفين يشير ابن الأثير (٥٥٥ -٦٣٠ هـ / ١١٦٠ -١٢٣٣ م) أن عليّاً " عاد من البصرة قاصداً الكوفة، فكتب لمعاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه إلى الدخول والطاعة، غير أنه لما وصل الكتاب لمعاوية استشار عمراً، فأشار عليه أن يجمع أهل الشام، ويُلزم عليا دم عثمان ويقاتله[٢٠] .

وهو نفس ما يؤكده أيضاً الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ / ٨٣٩ -٩٢٣م) الأسبق من ابن الأثير حيث يورد القول " **أن عليّاً لما استخلف عبد الله بن عباس على البصرة سار إلى الكوفة، متهيئاً لصفين، فاستشار الناس في ذلك، فأشار عليه قوم أن يبعث الجنود ويقيم، وأشار آخرون بالمسير فأبى إلا المباشرة، فجهز الناس فبلغ ذلك معاوية، فدعا عمراً بن العاص فاستشاره فقال: أما إذ بلغك أنه يسير فسر بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك قال : أما إذا يا أبا عبد الله فجهز الناس** " [٢١] .

هنا نلحظ أن الخروج للقتال جاء بمشاورة واسعة من قبل عليّ ومعاوية ، مما ينفي أية اتهامات (لاحقة) من أن القتال جرى لدوافع وأسباب شخصية بين الطرفين ، لكن الغريب الذي نلاحظه أن الروايات تصور مشهد استشارة علىّ للقيادات والزعامات القبلية ولعموم الناس[٢٢]

---

[١٨] الأخبار الطوال، ج١، ص ١٥٨.

[١٩] الأخبار الطوال، ج١، ص ١٥٨.

[٢٠] ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، (المتوفى: ٦٣٠هـ) الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٧م، ج٢، ص ٦٢٨

[٢١] تاريخ الطبري " تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري"، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧ هـ، ج٤، ص ٥٦٣.

[٢٢] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٦١ يروي الدينوري " لما رجع جرير رسول على لمعاوية كثر قول الناس في التهمه له، واجتمع هو والأشتر عند علىّ، فقال الأشتر: أما والله يا أمير المؤمنين، لو أرسلتني فيما أرسلت فيه هذا لما أرخيت من خناق معاوية، ولم أدع له باباً يرجو فتحه إلا سددته، ولا عجلته عن الفكرة، قال جرير: فما

كما يشير الطبري " **أن عليا لما تهيأ إلى صفين، استشار الناس في ذلك** "[٢٣] ، في نفس الوقت التي تقصر المصادر فيه المشهد لكي يبدو فقط استشارة شخصية من معاوية لعمرو بن العاص وربما في توسع أكثر ظهرت استشارة أسريه كما يروي الدينوري من أن معاوية جمع أشراف اهل بيته ، فاستشارهم في ألأمر"[٢٤].

عموماً وفي ظل التسارع للأحداث واتجاهها نحو الصدام المسلح يصف ابن أعثم الكوفي عملية حشد عليّ للجيوش والزخم القبلي الذي تميز به المعسكر الكوفي بالقول " **قام الأشتر النخعي فقال: يا أمير المؤمنين لو سرت بهذا الجيش إلى الشام لم يلقك بمثله أبدا** " [٢٥].

في نفس الوقت الذي يقود فيه عمرو منفرداً حملة دعائية لتأليب الجند و إيقاظ حمية جند الشام حيث يذكر الطبري" **جاء عمرو فحضض الناس، وضعف عليّاً وأصحابه، وقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم، وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم** " [٢٦] .

كذلك وفي نفس السياق والخطاب الإعلامي المتصاعد الذي تلصقه الروايات بعمرو بن العاص يرصد لنا الطبري عمرو وهو ينصح معاوية بالقيام بحملة دعائية في أواسط المقاتلين الشاميين للرمي بأن الذي دبر و قتل أو مسئول مسئولية مباشرة عن دم عثمان هو الإمام عليّ (٢٧)، ولم يكن شرحبيل بن السمط الكندي غائباً عنها أيضاً حيث يقول الدينوري "**قال عمرو لمعاوية أشرب قلوبهم اليقين ويقصد أهل الشام وأشرافها، بأن علياً مالأ على قتل عثمان، وأعلم أن رأس أهل الشام شرحبيل بن السمط الكندي، فأرسل اليه ليأتيك** [٢٨].

بل تتمادى الروايات في حبكة درامية شديدة الخيال حين تصور لنا قيام معاوية باستدعاء " يزيد بن أسد ، وبسر بن أرطاة، ومخارق بن الحارث، وحمزة بن مالك ، وحابس بن سعد الطائي، وأبا الأعور السلمي ، والضحاك بن قيس الفهري ، وذا الكلاع الحميري، والحصين بن نمير السكوني ، وحوشب ذا الظلم" وهؤلاء كانوا يعتبرون رؤساء وزعماء قبائل الشام يومئذ– حيث قال لهم معاوية : "**عزمت أن أكتب لشرحبيل بن السمط فإذا قدم أخبرته أن عليا قتل**

يمنعك من إتيانهم؟، قال الأشتر: الأن وقد أفسدتهم، والله ما أحسبك أتيتهم إلا لتتخذ عندهم مودة، والدليل على ذلك كثرة ذكرك مساعدتهم وتخويفنا بكثرة جموعهم.

[٢٣] تاريخ الرسل والملوك، ج٤ ، ص ٥٦٣ .

[٢٤] الأخبار الطوال، ج١، ص ١٥٧.

[٢٥] ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ج٢، ص ٤٨٩.

[٢٦] تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ٥٦٣.

[٢٧] تاريخ الرسل والملوك، ج٤، ص ٥٦٣.

[٢٨] الأخبار الطوال، ج١، ص١٥٩.

عثمان بن عفان، فإن طلب مني شهادة كنتم أنتم الشهود "[٢٩] وتتمادى الرواية في أنهم وافقوا على ذلك.

صفين (المعركة) بين ارتباك المشاهد التاريخية / والحضور الدعائي

صور لنا المؤرخون المشاهد التاريخية قبل عملية قبول التحكيم ورفع المصاحف أنها معركة بين معسكرين أحدهما يمتلك الحق والأخر يفتقده، كذلك كان الاصرار على أن معاوية لم يكن بالنسبة للإمام عليّ إلا قيادة متمردة خارجة عن دائرة الجماعة والطاعة، كان يعتبر ملمحا تاريخيا واضحاً وعاما.

وكما يشير الدكتور محمد سهيل طقوش في كتابه[٣٠] ، أن هناك نقطتان رئيسيتان شكلتا أساس الصراع لمعاوية مع الإمام عليّ ، الأولى مع مقتل عثمان ، أما الثانية فهي المتعلقة بمسألة شرعية السلطة والمتمثلة كذلك في القبول بخلافة الإمام عليّ[٣١] ، على أننا نختلف معه كذلك في طرحه الذي يشير فيه إلى أن قتلة عثمان هم من كانوا يتولون زمام الأمور في الكوفة ، وأنهم ومارسوا مزيدًا من التأثير، والضغط في سبيل الحرب ، فهذا الطرح ربما يكون تجاوزاً لسلطة الإمام عليّ وشرعيته التي ترسخت كثيراً بعد معركة الجمل ، والقفز على هذا كله ربما كان مقبولاً إن كان في الجانب المقابل معسكر الشام أما معسكر علىّ وبما يمثله من رمزية الامتداد التاريخي للخلافة بل وللرسول صلى الله عليه وسلم فالقبول بهذا الطرح ربما يكون صعب .

عموماً كان استناد المؤرخين على هذا المشهد المنقوص والقفز على أسباب الصراع هو ما يربك المشهد وبشده، ففي مقابل معسكر الشام (الغامض من حيث وضوح صورة التجهيزات القتالية وترتيبها–إلا من إشارات مشوشة)، يأتي معسكر العراق والذي يملك زمام الشرعية ويحظى بموافقة شرائح واسعة من المهاجرين والأنصار بوصفه القوة الضاربه الأكثر حضوراً وعدداً وتسليحاً.

هذا في الوقت الذي تشير فيه المصادر لتتقارب أعداد الجيشين ففي الوقت الذي ذكر فيه بعض المؤرخين كالمسعودي (٠٠٠ –٣٤٦ هـ = ٠٠٠ –٩٥٧ م) وابن الجوزي (٥٠٨هـ –

---

[٢٩] الفتوح، ابن اعثم الكوفي، ج٢، ص ٥١٨.

[٣٠] تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية".

[٣١] محمد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، ط١، دار النفائس، ٢٠٠٣، ص ٤٥٥.

٥٩٧/ ١١١٦ –١٢٠١م) والبلخي أن جيش عليّ بلغ خمسين ألفاً، ومعاوية تسعين ألفاً [٣٢] يقول الذهبي: أن جيش علي كان تسعين ألفا، أو مائة ألف ، وأن جيش معاوية بلغ سبعين ألفا [٣٣]، أما ابن قتيبة الدِّينَوري (٢١٣ – ٢٧٦هـ، ٨٢٨ – ٨٨٩م). فيذكر أن عدد جيش الشام ثلاثة وثمانون الفاً ([٣٤])، حتى أن خليفة بن خياط (٠٠٠ –٢٤٠ هـ = ٠٠٠ –٨٥٤ م) هو الأخر بدا متردداً في الحسم فذكر أن جيش عليّ كان خمسين ألفا وقيل تسعين ألفا [٣٥] ، ويقول أبو يوسف الفسوي (٠٠٠ – ٢٧٧ هـ = ٠٠٠ – ٨٩٠ م) " **كان أهل الشام ستين ألفا ، وكان أهل العراق مائة وعشرين ألفا** " [٣٦] .

وفي تجاوزنا للبحث عن حقائق ودقة الأرقام الموضوعة من قبل مؤرخينا الأوائل وفي ظل هذا الاختلاف والتردد وعدم الحسم، ندرك بالنظر مدى تقارب وعدم تفاوت عدد مقاتلي كل معسكر، وأن البعض صور معسكر عليّ الأقل والبعض العكس من ذلك وفي تصورنا أن هذا الأمر مرتبط بنتائج المعركة فالأكثر كان متوقعاً منه النصر، وهذا يحتاج لتعميق معاني الأرقام في ذهنية السرد التاريخي للأفضلية العددية.

وبالعوده لرصد المشاهد التمهيدية للمعركة ومع تجمع جند عليّ بالنخيلة على بُعد ميلين من الكوفة ، وتمكنه من حشد تجمع قبلي ضخم ، بعث زياد بن النضر الحارثي في طليعة من ثمانية آلاف مقاتل ، وبعث شريح بن هانئ في أربعة آلاف ، ثم خرج هو نفسه بالجيش إلى المدائن ، فوجه منها طليعة أخرى في ثلاثة آلاف إلى الموصل ، وسلك هو طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي حتى بلغ قرقيسياء ، لتأتيه الأخبار هناك بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين ، فما كان من عليّ إلا أن استأنف هو الأخر المسير إلى الرقة ، ليعبر منها الفرات غرباً وصولاً بجيشه لأرض المعركة الكبرى (صفين).

---

[٣٢] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ج٢، ص٤١٥، ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الامم والملوك، ج٥، ص١٢٢، كذلك البلخي، البدء والتاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٢٢٤.

[٣٣] سير أعلام النبلاء، فصل الراشدون، دار الحديث–القاهرة، ٢٠٠٦، ص٢٦٤.

[٣٤] الإمامة والسياسة، تحقيق :طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ج1، ص ٩٣.

[٣٥] أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (المتوفى: ٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار القلم، مؤسسة الرسالة –دمشق، بيروت، ص ١٩١.

[٣٦] يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي، أبو يوسف (المتوفى: ٢٧٧هـ)، المعرفة والتاريخ، تحقيق، أكرم ضياء العمري مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨١ م، ج٣، ص٣١٣.

وفي سياق نص غريب يورد ابن أعثم وابن كثير أنه أثناء مسير عليّ للمجابهة في صفين يقول " لما أتى عليّ الرقة نزل إليه راهب من صومعته فقال: إن عندنا كتابا توارثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام، أعرضه عليك؛ فقرأ الراهب الكتاب.

«بسم الله الرحمن الرحيم ....أنه باعث في الأميين رسولا منهم يعلمهم الكتاب والحكمة .... فإذا توفاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت فلبثت بذلك ما شاء الله ثم اختلفت ثم يمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقضي بالحق ولا ينكس الحكم، ...فمن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادة» ثم قال لعلي: فأنا أصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك، فبكى علي ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسيا منسيا "، وكان هذا الراهب مع عليّ حتى أصيب يوم صفين، وقُتل، فدفنه الإمام واستغفر له [٣٧] .

إن هذه الرواية الدعائية بجدارة وذات النصوص التقديسية الغيبية والتي وردت أجزاء منها في سياق مختلف (وصفاً للرسول صلى الله عليه وسلم) [٣٨] ربما تكشف لنا عن إصرار مسبق لوجود نوع من الشحن الإعلامي التقديسي – حتى وإن بدا مرتبكاً – خصوصاً في ظل ما سيكون عليه الوضع لاحقاً أثناء وبعد المعركة.

فهذه الرواية تحديداً تشكل نوعاً من أنواع الدعاية المبكرة ، كون الأمر يجرى بترتيبات مسبقة من قبل السماء ، فهي لا تكتفي لعليّ بالحق بل تجعله من القيادات الدينية التي تحدث عنها أهل الكتاب ووردت في كتبهم المقدسة ، ولاشك أن هذه الروايات لم تقتصر على معسكر أو جانب واحد ففي المقابل نرى ابن عساكر في تاريخ دمشق يورد القول "**جاء أعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله صارعني فقام إليه معاوية فقال يا أعرابي أنا أصارعك ، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لن يغلب معاوية أبدا ... فلما كانت صفين قال عليّ لو ذكرت هذا الحديث ما قاتلت معاوية** " [٣٩] ، وفي أخرى يذكر كذلك ابن عساكر" **لما**

---

[٣٧] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج ٢، ص٥٥٧، أيضاً ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٥٤.

[٣٨] انظر البيهقي (ت٤٥٨هـ)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص٣٧٤؛ كذلك سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الكلاعي الحميري، أبو الربيع (المتوفى: ٦٣٤هـ)، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله –صلى الله عليه وسلم –والثلاثة الخلفاء، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢٠هـ، ج١، ص١٦٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق، مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ج١، ص٣٢٨.

[٣٩] أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق، عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥ م، ج٥٩، ص٨٧.

وقع الصلح بين عليّ ومعاوية خرج عليّ فمشى في قتلاه فقال : هؤلاء في الجنة ثم مشى في قتلى معاوية ، فقال هؤلاء في الجنة وليصير الأمر إليّ وإلى معاوية فيحكم لي ويغفر لمعاوية هكذا أخبرني حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم " [٤٠]... هذا في الوقت الذي نطالع فيه روايات أخرى وهي تشير أن معاوية كتب الى عليّ : " **لو علمت وعلمنا ، أن الحرب تبلغ بك وبنا ما بلغت لم نجنها على أنفسنا ، فقد بقي لنا منها ما ينبغي أن نندم على ما مضى ونصلح ما بقي** " [٤١] .

إذن هكذا وبكل بساطة تُحاك بعض الروايات الغيبية –غير المقبولة–بأن عليّاً كان يعلم ما ستؤول إليه مجريات الصراع وهذا الكم الهائل من القتلى والدماء ...ثم يمضي فيه **!!!** في نفس الوقت الذي نرصد روايات آخري تشير بانتفاء معرفة كل طرف لما ستؤول إليه الأحداث لاحقاً .....فهل هو ارتباك في المشاهد التاريخية من قبل المؤرخين .... أم إصرار على فرض رؤيه ما ؟

إن هذا النوع من السرد التاريخي ربما تكمن أهميته في أنه يعلن لنا صراحة عن أن سلطة النص أو الرواية التاريخية الدينية كانت ولا شك الأقوى والأكثر تأثيراً في هذه المرحلة، وبأن المؤرخين احتاجوا لإعادة إنتاجها ربما لإعادة الزخم التقديسي لأحداث المعركة فكان ذلك يحتم البحث عن روايات غيبية تتحدث عن عليّ أو معاوية وتحيطهما بهالة من القداسة وبالتالي تصنع حولهما كذلك حاجزاً دعائياً يستطيع التصدي والوقوف بوجه التساؤلات اللاحقة التي منها لماذا لم يكسب عليّ المعركة؟ أو لماذا أمر بوقفها إن كان بالفعل في سبيل تحقيقه النصر؟

كذلك ربما تأتي مثل هذه الروايات لتكون أيضاً مسوغاً للمؤرخين أنفسهم ليواجهوا به الانتقاد لصنعتهم أو ميلهم.....فكيف يمتلك عليّ كل هذه الأسباب (سلطة اشرعية اجيش احشد هائل من القبائل ابيت مال) ويفشل في الحسم!!

عموماً وعندما اتخذت الجيوش موقعها في صفين ظهر واضحاً تجنب الطرفين القتال بكامل الجيش حيث بدا هذا الواقع المشهد الذي يحكم الصورة ، خاصة من قبل رؤساء القبائل ، وربما كان ذلك (خشية الهلاك والاستئصال ، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء)، حيث يقول الطبري " **توادعا طمعا في الصلح** [٤٢] ، فمن معسكر عليّ يخرج أحد كبار القادة مصحوباً ببعض المقاتلين ، يقابله في معسكر الشام أيضاً أحد كبار قادة معاوية ومعه عدد من المقاتلين ، وعلى ذلك سارت المواجهات ، حيث كان القتال على شكل كتائب

---

[٤٠] ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٩، ص ١٣٩.

[٤١] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٨٧.

[٤٢] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٥.

صغيرة وليس مجموعات أو فرق عسكرية كبيرة ، يؤكد ذلك ابن حَجَر العَسْقلاني (٧٧٣هـ – ٨٥٢هـ، ١٣٧٢م – ١٤٤٨م) حين يورد " **كان بينهم أكثر من سبعين زحفا**"[٤٣]، ويقول ابن خياط " **ظل الأمر طيلة شهر فلما انتهى، أرسل عليّ إلى معاوية و قال: هل لك إلى أن نتهادن شهراً** "[٤٤] ، وبالفعل قبل معاوية و توقف القتال تماماً و الجيشان في أماكنهما يتزاورون و يتسامرون في الليل ، كما يشير ابن الجوزي [٤٥].

(الحسم العسكري المفقود وفرية انتصار معسكر الامام علي)

ظل عليّ ومعاوية متمسكين بموقفهما و أماكنهما وترتيباتهما العسكرية والقبلية طوال حوالي ثلاثة أشهر وعشرة أيام [٤٦] إلا أنه بدا يظهر لعلي تململ قبلي ، خصوصاً أن رؤساء القبائل لم يكونوا متحمسين لمواجهة شاملة ، ومع استطاعة معسكر الشام الصمود كل هذا الوقت و كسر هذا الإجماع والحشود العراقية ، يمكن القول ايضاً أن الإمام بدأ يدرك حقيقة موقفة ووضعه الحرج ، لذا ربما كان التسريع بعملية الحسم العسكري المفقود والقتال أمر لابد منه بالنسبة لمعسكر العراق.

ومع هذا التوتر وانسداد الأفق السياسي وفي ظل شح المصادر التي تستطيع أن توضح مدى تململ القيادات القبلية أو حتى تفهم بنية الجيشين وهما على أهبة الاستعداد في هذا الوضع المتشابك ، نلحظ الارتباك والتعقيد والتشابك ، بل حتى أقدم المصادر الموسعة التي تناولت الوقعة وهو كتاب ابن مزاحم وقعة صفين بدا الوضع في هذه اللحظات الدقيقة يميل للغموض والضبابية باستثناء السرد الملحمي والشعر والخطب والحكايات التي تتناول هذا أو ذاك ، فبعد انتهاء الهدنة التي طلبها الإمام من قبل تأتي المعركة الكبرى يوم الخميس السابع من صفر[٤٧] عام سبع وثلاثون ، اليوم الأطول والأعنف في القتال والذي أطلق على ليله اسم الهرير حيث يصفها لنا ابن خليفة الذي كعادته كان حريصاً ودقيقاً بدون توسع بالقول " التقى الناس يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين ولواء علي مع هاشم بن عتبة بن

---

[٤٣] ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، قم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، صححه وأشرف على طبعه، محب الدين الخطيب، تعليقات، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، ج١٣، بيروت، ١٣٧٩، ص ٨٦.

[٤٤] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص١٩١.

[٤٥] ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص ١١٧–١١٨.

[٤٦] بدأ أول يوم في الرحب في غرة صفر سنة سبع وثلاثون من الهجرة، الدينوري، الاخبار الطوال، ص٢٥١، المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٧٢.

[٤٧] ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص ١١٨.

أبي وقاص وفي ميسرة علي ربيعة وعليهم ابن عباس وفي ميمنة علي أهل اليمن الأشعث بن قيس (الزعيم والقائد القبلي القوي)[٤٨] ، وعليّ في القلب في مضر البصرة والكوفة [٤٩] ، أما المعسكر الاخر فقد كان لواء معاوية فيه مع المخارق بن الصباح الكلاعي وفي ميسرة معاوية مضر عليهم ذو الكلاع وفي ميمنته أهل اليمن ومعاوية في الشهباء أصحاب البيض والدروع [٥٠] ، ومع مزيد من تجميع المشاهد المتشابكة للصورة النهائية التي بدا عليها الجيشان والمعسكران طوال قتال مستعر ممتد لأكثر من مائة يوم نجد الآتي:

جيش العراق

كان على ميمنته الأشعث بن قيس الكندي ، وعلى الميسرة عبد الله بن عباس ، وعلى الرجالة عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي[٥١] ، وقد احتفظ لنا خليفة بن خياط بوصف أكثر دقة حيث قال " كانت راية عليّ مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى الخيل عمار بن ياسر وعلي الرجالة عبد الله بن بديل وعلى الميمنة الأشعث بن قيس وعلى الميسرة عبد الله ابن عباس وعلى رجالة الميمنة سليمان بن صرد الخزاعي وعلى رجالة الميسرة الحارث بن مرة العبدي والقلب مضر البصرة والكوفة الميمنة اليمن

جيش الشام

كان لواء معاوية مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري وعلى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاص وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة الفهري وعلى أهل حمص الميمنة ذو الكلاع وعلى أهل قنسرين على الميمنة زفر بن الحارث وعلى أهل الأردن الميسرة أبو الأعور السلمي وعلى أهل فلسطين الميسرة مسلمة بن مخلد وعلى رجالة أهل دمشق بسرين أرطات وعلى رجالة أهل حمص حوشب ذو ظلم وعلى رجالة أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي وعلى رجالة أهل الاردن[٥٣].

---

[٤٨] الذي يلخص طه حسين مسيرته بالقول" لست أذكر من هؤلاء إلا الأشْعث بن قَيْس الكِنْدي، ذلك الذي أسلم أيام النبيّ ثم ارتدّ بعد وفاته، وألب قومه حتى ورّطهم في الحرب ثم أسلمهم وأسرع إلى المدينة تائباً، فلم يعصم دمه من أبي بكر فحسبُ، ولكنه أصهر إليه وتزوّج أخته أم فرْوة. ثم خَمل في أيام عمر وظهر في أيام عثمان فتولّى له بعض أعماله في فارس. فلما همّ عليّ أن ينهض إلى الشام عزله عن ولايته، ويقال إنه طالبه بشيء من مال المسلمين، ثم استصحبه واستصلحه. فلما رُفعت المصاحف ودُعي إلى التحكيم كان أشدّ كان الناس على عليّ في الدعاء إلى قبول التحكيم." طه حسين، الفتنة الكبرى، علي وبنوه، ط١٣، القاهرة، ص ٨١

[٤٩] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٩٣.

[٥٠] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٩٣.

[٥١] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٥٢٤.

والميسرة ربيعة وعلى قريش وأسد وكنانة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وعلى كندة حجر ابن عدي وعلى بكر البصرة حضين بن المنذر وعلى تميم البصرة الأحنف بن قيس وعلى خزاعة عمرو بن الحمق وعلى بكر الكوفة نعيم بن هبيرة وعلى سعد والرباب" [٥٢]

والغريب أن المصادر تؤكد مبادرة الشاميين بالهجوم المباشر على الميمنة إثر هجوم غير ناجح لابن بديل الخزاعي [٥٤] الذي قتل في النهاية كما يشير ابن خياط والطبري [٥٥] ، كما يقول ابن كثير(٧٠٠ – ٧٧٤هـ) أن "**عبد الله بن بديل كسر الميسرة التي فيها حبيب بن مسلمة حتى أضافها إلى القلب فأمر معاوية الشجعان أن يعاونوا حبيباً حبيباً على الكرة وبعث إليه معاوية يأمره بالحملة والكرّة على ابن بديل ، فحمل حبيب بمن معه على ميمنة أهل العراق فأزالوهم عن أماكنهم وانكشفوا عن أميرهم حتى لم يبق معه إلا زهاء ثلاثمائة وانجفل بقية أهل العراق**" [٥٦] ، وبهذا الهجوم الشامي اخترقت ميمنة جيش الإمام حيث رأى الإمام ضرورة ترك القلب واللجوء للميسرة حتى ان ابن كثير يصف الوضع بالقول "**اقترب أهل الشام منه حتى جعلت نبالهم تصل إليه**" [٥٧] ، وربما كانت قبيلة ربيعة القوية هي التي أنقذت المشهد في هذه اللحظات بالنسبة للإمام عليّ .

كذلك تحدثنا المصادر عن وجود فرقة من القرّاء يقودها عمار بن ياسر وهاشم بن عتبة حيث سبق وأن أشار خليفة بن خياط أنه " **كانت راية علي مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص**

---

[٥٣] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج١، ص ١٩١.

[٥٢] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج١، ص ١٩١.

[٥٤] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج١، ص ١٩٤.

[٥٥] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ١٦.

[٥٦] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٦٣.

[٥٧] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٢٦٣.

وعلى الخيل عمار بن ياسر" [٥٨]، لكن الطبري يحدد بالقول على ميسرة عليّ " **عبد الله بن عباس، وقرّاء أهل العراق مع عمار بن ياسر، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل**"[٥٩].

ومع الاسترسال و الدقة في حشد المؤرخين للزعامات القبلية والقبائل بالمشهد الختامي للمعركة (مذحج ، همدان ، كنده ، طي ، تميم ، بكر، عبد القيس) إلا أنه وعلى الجانب الأخر بالمعسكر الشامي يبدو المشهد غامضاً ، مشوشاً ، باستثناء الحضور الطاغي للقبائل اليمنية ، وفي لحظات ملحمية تصور مدى الصراع الدموي الرهيب وربما تكافؤ الفرص ، يقوم ذو الكلاع في كتيبة من أربعة آلاف من قرّاء أهل الشام بقيادة أحد أبناء الخليفة عمر بن الخطاب (١٣- ٢٣ هـ / ٦٣٤- ٦٤٤ م) (عبيد الله) بشن هجوم على الجيش العراقي وتحديداً قبيلة ربيعة التي كان الإمام لايزال موجوداً بين مقاتليها لينتهي هذا المشهد الملحمي بمقتل ذو الكلاع وابن عمر ، حيث يصف لنا الدينوري المشهد بالقول: " **خرج ذو الكلاع في أربعه آلاف فارس من اهل الشام فحملوا على ربيعة التي عليها عبدالله بن عباس ، فتصدعت جموع ربيعة ، فاشتد القتال ، ثم حمل عبيد الله بن عمر ، فيمن كان معه فاقتتلوا ، وعبيد الله أمامهم متهماً ربيعة بشكل خاص**[٦٠] " ، كما يشير نصر ابن مزاحم إلي مسئولية مقتل عثمان حيث يقول " **يا أهل الشام، هذا الحي من أهل العراق ويقصد ربيعة قتلة عثمان بن عفان ، وأنصار عليّ بن أبي طالب، إن هزمتم هذه القبيلة أدركتم ثأركم في عثمان** [٦١] ، فحمل عليه حريث بن جابر الحنفي ، فطعنه فقتله حسب قول الدينوري[٦٢] ، لتتواصل المعركة فيسقط كذلك الصحابي الجليل عمار بن ياسر ، هذا الرمز الإسلامي الكبير ، وعلى الرغم من الروايات والنصوص التي تتناول مقتل عمار بن ياسر وما يحيط بها من دلالة تغليب فئة على أخرى إلا أن القتال تواصل وبشدة دون توقف ولم يكن مشهد سقوط عمار أثناء القتال إلا مشهداً تاريخياً دعائيا سيتم لاحقاً الاستناد له في قضية الحق والباطل .[٦٣]

لقد كان من الملاحظ أن أغلب المعارك أو بمعنى أدق الملاحم الدموية للقتال تجري بزخم أكبر حول الرايات و بين القيادات القبلية ، هذه القيادات التي ستفاجأ أنها استنزفت وأنهكت

---

[٥٨] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج١، ص ١٩٤.

[٥٩] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ١٥.

[٦٠] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٧٨

[٦١] نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٤٠.

[٦٢] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٧٨.

[٦٣] الاشارات التي تتحدث عن مقتل عمار على يد الفئة الباغية منها، ابن حجر، فتح الباري، ج١، ص ٣٠١؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٣٨-ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٣، ص ١٣٨.

وسقط لها أعداد كبيرة من المقاتلين ، حيث تبدأ الروايات والنصوص هنا في إقحام وإظهار صور التململ القبلي والزعامات القبلية ورؤساء القبائل من القتال ، حيث يورد لنا ابن مزاحم محاولة مقبولة قام بها عبيد الله بن عمر قبل مقتله حينما أرسل للحسن بن علي قائلاً له " إن أباك قد وتر قريشا أولاً وآخراً ، وقد شنئوه فهل لك أن تخلفه ونوليك هذا الأمر؟ فرفض الحسن[٦٤] ، كذلك يورد ابن مزاحم على لسان أحد الزعامات القبلية قوله مخاطباً الفريقين " أين النهى والأحلام، هذه النساء تبكي الأعلام [٦٥] .

هذه الصورة الملحمية التي نفذت فيها أرصدة السيوف والرماح وحملت المقاتلين كما يصف المؤرخون إلى الاقتتال بالحجارة والصخور والتضارب بها حتى أنهم كما يشير ابن مزاحم " **تحاثوا بالتراب** "[٦٦]، كان ولابد فيها وفي ظل هذا الزخم الدموي الرهيب والمجازر القبلية التي لن يخرج منها منتصر أن تبدأ الروايات والنصوص في البحث عن أسباب منطقية ودعائية تنهي هذا الزخم وتوقف السرد التاريخي له، ولكن بمبررات تبدو مقبولة.

حيث بدا التأثر واضحاً فيما تقدمه بعض روايات المصادر من صورة عاطفيه لعليّ وحرصه على الدماء وسماحه في أوقات كثيرة لقوات الشام بالوصول إلى جرحاها، في مقابل معاوية الذي تصوره نفس المصادر أنه منعهم من قبل الوصول إلى الماء، وهذا سيفسر لنا لاحقاً هذا الكم الهائل من الروايات التي ستتحدث بعدها عن عدم مسئولية الإمام عن القبول بالتحكيم وقوة الضغوط التي تعرض لها للقبول بعملية التحكيم.

رفع المصاحف مشهد مقبول لإنهاء المعركة، بعيداً عن الخدعة والمكيدة.

أشاعت الروايات التاريخية أن مشهد رفع المصاحف من قبل معسكر أهل الشام، جاء وكأنه اعترافاً بالهزيمة وخدعة لإنهاء القتال؛ والحقيقة أنه من الخطأ الاعتقاد بأن عليّ ذهب للقتال لأجل التفاوض فعليّ بكل هذا الحشد العسكري بشقية الديني \ السياسي والقبلي كان مستعداً لضرب الانشقاق أينما كان وبكل القوة لفرض الطاعة، لكن وفي ظل هذا الكم الهائل من الدماء من الفريقين والاستئصال القبلي للجند والقيادات والزعامات الدينية ربما قاد ذلك إلى تغير الموقف، ولم يُعد من المقبول الاستمرار في القتال للنهاية.

هنا يشير الطبري أنه عندما رفعت المصاحف قال علي: " **ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، فإن تطيعوني تقاتلوا، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم!**" [٦٧] ويقول ابن

---

[٦٤] نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٩٧.

[٦٥] نصر بن مزاحم، وقعة صفين.

[٦٦] نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٣٠٤.

[٦٧] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٤٣.

الأعثم الكوفي على لسان عليّ "**رأيتهم صغاراً وصحبتهم كباراً ، وكانوا شرّ أطفال وشر رجال ، وقد علمت أن رفع هذه المصاحف إنما هو وهن وخديعة**" [٦٨] ويقول ابن الجوزي " **أنشدكم باللّه ، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم نجيبهم إلى كتاب الله قلت لكم إني أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني عرفتهم أطفالاً ورجالاً ، فكانوا شر أطفال وشر رجال ، امضوا على حقكم ، فإنما رفعهم المصاحف خديعة ، فرددتم علي رأيي وقلتم: لا بل نقبل منهم**" [٦٩] ، و يؤكد هذه الرواية ابن الأثير فيذكر" **والله ما رفعوها إلا خديعة ووهنا ومكيدة. فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله! فقال لهم عليّ: فإني إنما أقاتلهم ليدينوا لحكم الكتاب، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونسوا عهده، ونبذوا كتابه. فقال له مسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي، في عصابة من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك: يا علي أجب إلى كتاب الله**"[٧٠] وهي نفس رواية ابن كثير[٧١] .

ومع إشارة وحيدة عند الطبري لا نكاد نتبين أيه إشارات غيرها دقيقة وواضحة تبين لنا مدى انكشاف العمق في جيش معاوية حيث يقول الطبري "**زحف عبد الله بن بديل في الميمنة نحو حبيب بن مسلمة ، فلم يزل يحوزه ، ويكشف خيله من الميسرة حتى اضطرهم إلى قبة معاوية**" في المقابل هناك رواية أخرى للطبري[٧٢] تشير إلى أن معاوية ، أمر أن يصمدوا لابن بديل في الميمنة ، وبعث إلى حبيب بن مسلمة في الميسرة ، فحمل بمن كان معه على ميمنة عليّ فهزمهم ، وانكشف أهل العراق من قبل الميمنة حتى لم يبق منهم إلا ابن بديل في مائتين او ثلاثمائة من القراء ، قد أسند بعضهم ظهره إلى بعض [٧٣] .

في المقابل هذا عليّ يقول لزعماء وكبار قادته كما يشير ابن مزاحم والطبري "**لم يصب منا إلا وقد أصيب مثلها منهم، وكل مقروح** " [٧٤]. إن هذه الاشارات المغفلة تدل على أن علياً ومعاوية كانا بالفعل في طريقهما لترتيبات وقف القتال وليس المضي قدماً فيه، بل إن معاوية نفسه يقدم لنا صورة لجيشه و مدى قدرته على تواصل القتال وعدم قدرة معسكر العراق على

---

[٦٨] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٣، ص ١٨٩.

[٦٩] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص ١٢٦.

[٧٠] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٦٦٨.

[٧١] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص ٣٧٢.

[٧٢] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ١٥.

[٧٣] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ١٨.

[٧٤] ابن مزاحم، وقعة صفين، ص٤٨٢، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٤٩.

الحسم فيقول " **أدالت هذه الحروب منا ومنكم حتى استوينا فيها... ولستم تلاقوننا اليوم إلا بمثل ما كان بالأمس ولا غدا إلا بمثل اليوم**" [٧٥] .

كما أن هذه المشاهد المشوشة أيضاً والتي سبقت عملية رفع المصاحف لا يمكن أن نستثني منها أن مفاهيم القبلية والحمية والأحساب و المكاسب السياسية – (العامل الاقتصادي والاجتماعي) كان لهم دور[٧٦] ، لكن وعندما بدأت تلوح في الأفق وللجميع ضخامة الخسائر والدماء التي أريقت ، والذي لا يمكن معهما أن يكون هناك منتصر حقيقي ، فالأمة جميعها محتشدة في هذا المشهد الملحمي الذي بدأ يلوح فيه بالفعل تمزق دولة الاسلام – الوليدة – هنا تحديداً كان حتماً وضرورياً أن تنطلق الدعوات والنداءات بضرورة وقف القتال ، والحفاظ على ما بقي من قوى إسلامية ، وليس شامية أو عراقية ، فهذا ابن مزاحم يحتفظ لنا برواية على لسان أحدهم وهو ينادي " **القوم ينحر بعضهم بعضا ، أما تذكرون نساءكم والبنات، أما تذكرون أهل فارس والروم والأتراك، لقد أذن الله فيكم بالهلاك** [٧٧] ، كذلك يورد لنا البلاذري (٠٠٠ – ٢٧٩ هـ / ٠٠٠ – ٨٩٢ م) و ابن الأثير(٥٥٥ – ٦٣٠ هـ / ١١٦٠ – ١٢٣٣م) مزيداً من نفس العبارات والدعوات الدعائية " من لثغور الشَّام بعد أَهْل الشَّامِ؟ ومن لثغور الْعِرَاق بعد أهل الْعِرَاق"؟ [٧٨]" من لثغور الشام بعد أهله؟ من لثغور العراق بعد أهله؟ [٧٩] .

بل أن إحدى الروايات التي تصور لنا لاحقا مقتل حوالي مائة وثمانون من حي واحد وبكاء وعويل النساء لهذا المشهد العاطفي فيما بعد قد نستطيع أن نتلمس منها عظم المجزرة التي جرت حيث يقول ابن الأثير " **سمع عليّ عويل وبكاء فقال ما هذه الأصوات؟ فقيل: البكاء على قتلى صفين... ثم مر فسمع مثل ذلك، ثم مر فسمع رجة شديدة فوقف، فخرج إليه حرب بن شرحبيل، فقال له عليّ: أيغلبكم نساؤكم؟ ألا تنهونهن عن هذا الرنين؟ قال: يا أمير المؤمنين، لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثا قدرنا على ذلك، ولكن قتل من هذا الحي ثمانون ومائة قتيل**"[٨٠] .

---

[٧٥] ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ج٣، ص ١٥٣.

[٧٦] كما يشير هشام جعيط في كتابه الفتنة "جدلية الدين والسياسية في الإسلام المبكر"، ط١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩١.

[٧٧] نصر نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٣٠٢.

[٧٨] البلاذري، أنساب الاشراف، ج٢، ص ٣٢٣.

[٧٩] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٦٦٧.

[٨٠] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص ٦٧٥.

بل هذا معاوية نفسه في ظل هذا الارتباك والغموض والتشويش والأجواء المشحونة بالدماء والقتل يحسب نفسه على معسكر القرشيين–بعيداً عن أهل الشام–فيقول في كتابه لابن عباس " **أبقوا على قريش واتقوا الله ربكم، فإنما بقي من قريش ستة رجال: رجلان بالشام أنا وعمرو بن العاص، ورجلان بالعراق عليّ وأنت، ورجلان بالحجاز سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر**"[٨١] .

ففي ظل كمية الاستنزاف والإبادة المتبادلة لقوى الطرفين وغياب الأمل بالحسم ، نرى هذا الزخم الإعلامي والدعوات ، بضرورة وقف القتال أياً كانت النتائج و ما يترتب عليها ، هنا تحديداً كان عليّ ومعاوية مدعوان وبشدة أن يقدما تنازلاً حقيقياً بحجم الكارثة وبحجم الدمار والهلاك والاستئصال الذي تكبده كل طرف ، بما يعني أن القبول بالمفاوضة والتحكيم لم يكن مخرجاً مقبولاً منهما لوقف هذه الملحمة وحسب ، بل كان يعني في حقيقة الأمر الحفاظ على ما بقي من دولة الإسلام من السقوط والتمزق والحفاظ على بقية القيادات والمقاتلين.

ومع تجاوزنا لابن مزاحم في كتابه (وقعة صفين) في هذه الجزئية المرتبكة عنده، نرى خليفة بن خياط يحتفظ لنا بمشهد رفع المصاحف باقتضاب وشمول فيذكر " **رفعت المصاحف، دعوا إلى الصلح وافترقوا على سبعين ألف قتيل ...** "[٨٢] .

وتقول بعض المصادر الأخرى أن معاوية قال لعمرو بن العاص: "**ويحك أبا عبد الله! أين حيلك التي كنت أعرفها منك؟ فقال عمرو: تريد ماذا؟ قال: أريد أن تسكن هذه الحروب، فقد أبيد أهل الشام، وإني لأعلم إن دامت هذه الحرب يومنا هذا لم يبق بأرض الشام أحد يحمل سلاحنا، فقال عمرو: إن أحببت ذلك فأمر بالمصاحف أن ترفع على رؤوس الرماح ثم ادعهم إليها، فإنك إن فعلت ذلك لم يقاتل أحد أحدا، فهذه حيلتي ومكيدتي التي لم أزل أدخرها لك**"[٨٣]، إذن هذه الرواية وبإصرار غريب وببساطة تصور لنا مشهد استباقي بامتياز يعرف فيه الثنائي (عمرو ومعاوية) نتائج المعركة، وأنهما مقدمان على مكيده – رفع المصاحف.

أما ابن الأثير فيقول "**لما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد، وخاف الهلاك، قال لمعاوية: هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا، ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم. قال: نرفع المصاحف، ثم نقول لما فيها: هذا حكم بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها ، رفعنا القتال**

---

[٨١] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٣، ص ١٥٢.

[٨٢] خمسة وأربعين ألفا من أهل الشام وخمسة وعشرين ألفا من أهل العراق ويقال على ستين ألفا ، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة ، ج١، ص ١٩٤.

[٨٣] ابن اعثم الكوفي، الفتوح ج٢، ص ١٨١.

عنا إلى أجل" فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهله؟ من لثغور العراق بعد أهله؟"[٨٤].

إن التساؤل هنا ماذا لو قبل عليّ – والذي تؤكد كثير من الروايات والنصوص أنه كان قريباً من النصر–أن يجرى وقف القتال والتفاوض فوق أرض المعركة مع تثبيت كل طرف لما تحت يده سواء (مكاسب أو خسائر)؟ وهل كان صاحب الترس المذهب كما تصفه إحدى روايات الطبري غير المقبولة في هذه اللحظات[٨٥] – معاوية ، والذي هو نفسه من دعا لوقف القتال سيقبل بهذا الوضع إن قبل به عليّ؟ فهذا السؤال الغائب من كل الروايات والنصوص، وكأن هذه الفرضة غير ممكنة الوجود رغم أن ذلك هو البديهي لو صح الحديث عن أن معسكر العراق كان هو القريب من النصر وسوف يقبل كل جنده بدون خلاف !!!!! فهي إبطال لكل حجج خصومه وتحقيق لمكاسب المعركة لو كانت موجودة.

أن مشهد رفع المصاحف والقبول بالتحكيم وقبل تجريده مما علق به من مشاهد دعائية، لم يكن يخرج عن نسقين تاريخيين

الأول: محاولات تظهر عليّ آمراً بوقف القتال بعد رفع المصاحف [٨٦].

أما الثاني: فيرى أن وقف القتال جاء رغماً عنه وأنه أجبر عليه.

حيث تزعم الرواية الشائعة التي رواها الطبري، واليعقوبي (٠٠٠ –بعد ٢٩٢ هـ = ٠٠٠ – بعد ٩٠٥ م)، والمسعودي (٠٠٠ –٣٤٦ هـ = ٠٠٠ –٩٥٧ م)، وابن الأثير، وابن الجوزي (٥٠٨هـ –٥٩٧، ١١١٦ –١٢٠١؟ م)، و الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، و ابن كثير (٧٠٠ –٧٧٤هـ) [٨٧] عن أبي مخنف لوط بن يحي (ت١٥٧هـ) ، أنه لما رفع أهل الشام المصاحف ، قال عليّ " **في الأمر مكيدة** " وأراد المضي في القتال لكن أصحابه لم يوافقوا ، و قالوا له : ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله ، فنأبى أن نقبله . ثم تقدمت إليه –أي إلى عليّ–جماعة من القرّاء [٨٨] – الذين سيطلق عليهم لاحقاً الخوارج –وطالبوه بالموافقة على وقف القتال، بل تمضى الروايات للزعم بأن القراء (الخوارج) هددوا عليّاً بالقتل والدفع لمعاوية إن لم يرض بوقف

---

[٨٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٢، ٦٦٧.

[٨٥] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص٢٥.

[٨٦] الطبري تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص: ١٠١؛ اليعقوبي البلدان، ج٢ ص: ١٣٤.

[٨٧] منهم، الطبري، واليعقوبي، والمسعودي، وابن الأثير، وابن الجوزي، والذهبي، وابن كثير.

[٨٨] منهم، مسعر بن فذكي التميمي، و زيد بن حصين الطائي – الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ، ٣ص ١٠١

المعركة، وأن الإمام وفي ظل هذ الضغوط أمر بوقف القتال كما يشير المقدسي (٠٠٠ –بعد ٣٥٥ هـ = ٠٠٠ –بعد ٩٦٦ م) وغيره [٨٩].

ويذكر كذلك أبو بكر المالكي (ت ٥٢٠هـ) [٩٠] في نص تاريخي استثنائي مصرحاً بدون جزم بأن جيش الشام شعر بالهزيمة " **ظهر أهل العراق على أهل الشام، وتضعضعت صفوف معاوية وأحس أنه مغلوب، فقال لعمر بن العاص: اذهب فخذ لنا الأمان من ابن عمك! يعني عليّاً، فأدار عمرو الحيلة وأمرهم أن يرفعوا المصاحف على الرماح، وبسبب ذلك جرى التحكيم**"[٩١] .

وفي وصف قصير يقول ابن سعد " **رفع أَهْل الشّام المصاحف يدعون إِلَى ما فيها مكيدة من عَمْرو بْن العاص** " [٩٢] .

ويذكر الواقدي (١٣٠ –٢٠٧ هـ = ٧٤٧ –٨٢٣ م) مرجعاً سبب رفع المصاحف للضجر والتململ وليس هزيمة معسكر أهل الشام فيقول " **اقتتلوا أياما حتى قتل خلق وضجروا، فرفع أهل الشام المصاحف** "[٩٣] وكذلك يقول ابن خياط " **استمر القتال دون أي حسم لطرف على آخر**"[٩٤].

ويذكر ابن مزاحم أن عليّاً لما رفعت المصاحف قال " **اللهم انك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون فاحكم بيننا وبينهم** "، وفي رواية اخرى يقول أيضاً " **لما رفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى حكم القرآن قال علي** " **كلمة حق يراد بها باطل** " [٩٥] .

أما الطبري (٢٢٤–٣١٠هـ، ٨٣٩ –٩٢٣م) كما أشرنا فيورد عن أبو مخنف القول" **أن عليّاً قال: امضوا على حقكم وصدقكم** " [٩٦] لكن الدينوري (؟ – ٢٨١هـ، ؟ – ٨٩٤م) يرصد

---

[٨٩] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣ ص ١٠١، ١٠٦،١٠٥،١٠٣،١٠٢،١٠٧؛ المسعودي، ج٢، ص ٤٦٩؛ اليعقوبي، البلدان، ج ٢ ص، ١٣٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص، ١٩١، ١٩٢، ١٩٥، ٢٩١، ٢٩٥؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص، ١٩٣؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص، ١٢١، ١٢٢ ١٢٣؛ ابن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، ج ٥، ص،٢٢١ ٢٢٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص، ٢٨٣، ٢٨٤.

[٩٠] في كتابه سراج الملوك.

[٩١] أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي المالكي (المتوفى: ٥٢٠هـ)، سراج الملوك، من أوائل المطبوعات العربية – مصر، ١٨٧٢، ج١، ص ١٨١.

[٩٢] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص ٢٣.

[٩٣] الذهبي، سير الاعم النبلاء، ص ٢٤٦.

[٩٤] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٩٤.

[٩٥] نصر ابن مزاحم ، وقعة صفين، ص ٤٩٧.

[٩٦] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٤٨.

لنا موقفاً آخر حين يذكر " **أن الأشعث بن قيس قال لقومه، وقد اجتمعوا إليه: قد رأيتم ما كان في اليوم الماضي من الحرب المبيرة. وإنا والله إن إلتقينا غداً، انه لبوار العرب وضيعه الحرمات. وأن معاوية حينما وصله كلام الأشعث، قال: صدق الأشعث، لئن التقينا غدا ليميلن الروم على ذراري أهل الشام، وليميلن دهاقين فارس على ذراري أهل العراق، وما يبصر هذا الأمر إلا ذوو الأحلام، اربطوا المصاحف على أطراف القنا، قالوا: فربطت المصاحف**"[٩٧] .

ومن الواضح هنا أن القبول بوقف القتال والإذعان لما ستفرزه الأحداث لاحقاً، كان مخرجا مطلوبا للجميع، حيث تبدو لنا في هذه المشاهد الواقعية التاريخية للنص والرواية، بعيداً عن حالة التقديس للشخوص ورمزية رفع المصاحف.

ولا شك أن القوى القبلية شكلت نموذجاً ضاغطاً على قياداتها، لكن ومع أن معظم الروايات تعطي صورة الانتصار الوشيك لعليّ لكن المعطى الرئيسي الذي غاب عن الرصد هو المشاهد الملتبسة بعد وقف القتال ورفع المصاحف، والقبول بعملية الموادعة والتحكيم، فمن المقبول جداً أن يقبل عليّ بوقف القتال سواء أُجبر عليه أو لم يكن راضياً به أو حتى قبله في ظل وتحت ضغط الزعمات القبلية وهذا الكم من الدماء والقتلى " حيث تذكر احدى الروايات أن الناس في معسكر عليّ ماجت وقالت: "**أكلتنا هذه الحروب وقلت الرجال**" [٩٨]. كما تتلقف كتب التاريخ العبارة المشهورة التي يتم نسبتها مرات لمعسكر الشام ومرات أخرى لمعسكر العراق " يا قوم! الله الله في البقية! الله الله في الحرم والذرية "؛ حيث يقول ابن أعثم " **جعلت المشايخ من أهل الشام ينادون في تلك الغمرات: يا قوم! الله الله في البقية! الله الله في الحرم والذرية** " [٩٩]. وفي رواية " **يا معشر العرب، الله الله في نسائكم وأولادكم من فارس والروم فقد فنيتم** " [١٠٠].

توقف المعركة بدون شروط (المفاوضات) .... لأجل ماذا؟

هل من المقبول أن ينسحب الجيش الذي كان قاب قوسين أو أدني من إنهاء المعركة لصالحه ويترك ما حققه من انتصارات ويعود بدون تحقيق أية مكاسب مادية أو معنوية؟ ولماذا يوافق من كان في طريقه للنصر على القبول بالتحكيم في أرض المعركة؟

إن الصانع لمشاهد قبول التحكيم والملاحظ فيه النزوع التاريخي المؤيد لعليّ فاته أن أبسط القواعد العسكرية تقتضي ضرورة حسم الموقف القتالي فوق أرض المعركة أي بصفين وليس

---

[٩٧] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٨٩.

[٩٨] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ص ١٨٣.

[٩٩] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٣، ص ١٨١.

[١٠٠] الدينوري، الاخبار الطوال، ج١، ص ١٨٩.

بعدها بثمانية أشهر [١٠١]، فالمنطق يحتم على أي قائد يرى نفسه منتصراً أن يجبر الطرف الضعيف أو المهزوم للقبول بشروط الصلح والموادعة على حسب ما يراه هو، وأن يجرى التفاوض وفق شروطه وتثبيتاً لوضعه كمنتصر وليس انهاء للموقف المعقد والمتشابك وتأجيل الوضع بل والنتائج لمدة تقارب العام؟ .

إن هذه التساؤلات تكاد تكون مغيبة وتحتاج لإجابات مقنعة كما أسلفنا سابقا. فاذا قبل عليّ وكان منتصراً فسيجبر الطرف الأخر على التحكيم في أرض المعركة، إننا لا نجد سبباً مقنعا للخروج من أرض المعركة الا إذا كان عليّ بالفعل بعيداً عن الانتصار كبعد معاوية هو الأخر، وأن دوافع عليّ للخروج هي قبوله للأطروحة المتحدثة عن الخسائر وعدم قدرته على الحسم العسكري –المنتج لوضع سياسي جديد يكون فيه قبول معاوية بالطاعة –وهذا الموقف لا شك تبنته أيضا القيادات القبلية في الطرفين؟

هنا ربما نكون مجبرين على القول إن عليّاً وهو القائد العسكري ذو الخبرة الطويلة في الحروب لا شك حين قبوله الخروج من أرض المعركة بعد القبول بالتحكيم لم يكن أيضاً مقتنعاً بما سيسفر عنه لقاء الحكمين لاحقاً، وأن طلب وقف القتال جاء مخرجاً ضرورياً بعد كل هذه الدماء والقتلى، وعليه فرفع المصاحف ومطلب الخروج من القتال بعد استنزاف الطرفين قواهما ليس خدعه بل كان مطلبا للجميع.

ومجدداً يأتي اللجوء للنص الديني أو الرمز فبعد معركة الجمل، والنهاية المأساوية لرموز من الصحابة، يأتي هنا رفع المصاحف الكتاب المقدس للمسلمين والمرجع المشترك للجميع!!

والغريب أن إصرار الرواية والنص التاريخي على إظهار الرمز أو المقدس – رفع المصاحف– أتى وكأنه التبرير المقبول لموقف عليّ وقبوله بالتحكيم ، بما أنتج لنا في النهاية مشهداً (وهمياً أكثر منه واقعياً) خصوصاً مع الإرهاق الكبير في الجانبين والارتفاع غير المقبول للقتلى ، والذي من غير اليسير القطع بذكر أرقام دقيقة له ، حيث زعم البعض أنه من أهل الشام خمسة وأربعين ألفاً ، ومن أهل العراق خمسة وعشرين ألفاً ، كما يذكر ابن الجوزي عن مُحَمَّد بن سيرين " **قتل يوم صفين سبعون ألفا** "[١٠٢] ، وربما هذا التجاوز والارتفاع في عدد القتلى جاء كذلك لمسببات ايديولوجية وتوجهات معينة ، فمن المعروف أن القتال والصدام الجماعي استمر ثلاثة أيام ومهما كان القتال عنيفاً ، فلن يفوق شدة القادسية التي كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة ، وبالتالي يصعب القبول بهذا العدد الكبير.

---

[١٠١] المطهر بن طاهر المقدسي (المتوفى: نحو ٣٥٥هـ)، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د.ت، ج٥، ص ٢٢٧.

[١٠٢] ابن الجوزي، المنتظم، ج٥، ص ١٢٣.

لقد كان تقديم عليّ ومعاوية التنازل في خضم هذا الوضع والمشاعر المشحونة بأجواء السلمية والدماء النازفة من الجميع سيكون الوضع الطبيعي والمخرج الأفضل حتى وإن لم ترافقه أية مكاسب – سوي حقن دماء المسلمين–بل إن المفاوضات التي جرت لم تقدم أي طرف خطوة واحدة على الطرف الأخر، بل بقي كل قائد ثابتاً على موقفة السابق قبل بدء القتال.

نتائج التحكيم علىّ | معاوية ...خليفتين!!

بعيداً عن أن عمراً ثبت معاوية وأبو موسى خلع عليّ وما تم نسجه من روايات ونصوص حول ما دار في مؤتمر التحكيم .....ما يهمنا هو كيف دارت المفاوضات على صيغة التحكيم، بعد أن سكنت الحرب وانصرف الفريقان إلى أمصارهم، ورجع معاوية–إلى الشام وعليّ إلى العراق، حيث يذكر الطبري أن عليّاً ومعاوية اتفقا على أن يوافيا موضع الحكمين بدومة الجندل [١٠٣] في شهر رمضان، ومع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح [١٠٤] العام الثامن والثلاثون من الهجرة [١٠٥].

وباقتضاب وضبابية يرصد لنا خليفة بن خياط أن الطرفين اتفقا على اللقاء بأذرح، أو بدومة الجندل القريبة منها في شهر رمضان [١٠٦]، حيث بعث عليّاً ابن عباس – الذي لم يحضر –وحضر معاوية، فلم يتفق الحكمان على شيء وافترق الناس وبايع أهل الشام معاوية بالخلافة [١٠٧] وإن كانت رواية خليفة بن خياط السابقة لا وجود لها في بقية المصادر "رواية آحاد" لا يعول عليها كثيراً وتحتاج لمزيد من التفنيد.

---

[١٠٣] ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٨٧، يقول الحموي" دُومَةُ الجندَل بضم أوله وفتحه، عدّها ابن الفقيه من أعمال المدينة، لما كثر ولد إسماعيل، عليه السلام، بتهامة خرج دوماء بن إسماعيل حتى نزل موضع دومة وبنى به حصنا فقيل دوماء ونسب الحصن إليه، وهي على سبع مراحل من دمشق بينها وبين مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلّم، وقال أبو سعد: دومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ، وقال أبو عبيد السكوني: دومة الجندل حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طيّء كانت به بنو كنانة من كلب ".

[١٠٤] يقول أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع،" أذرح بحاء مهملة على وزن أذرع، مدينة تلقاء الشّراة ، من أدانى الشام، قال ابن وضّاح، أذرح بفلسطين، وبأذرح بايع الحسن بن علىّ معاوية بن أبى سفيان، وأعطاه معاوية مئة ألف دينار" عالم الكتاب ، بيروت، ١٤٠٣هـ، ج١، ص ١٣٠؛ أما ياقوت الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) فيقول "هي في قبلي فلسطين من ناحية الشراة"، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥ م، ج١، ص١٢٩.

[١٠٥] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٥٧.

[١٠٦] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج١، ص ١٩١.

[١٠٧] خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ص ١٩١.

هذه باختصار رواية خليفة التي تلخص ماجري باختصار شديد وربما تنهي الجدلية حول النتائج التي كانت مرجوة من اجتماع الحكمين فعليّ خليفة على ما تحت يده من أمصار وله فيها نفوذ سياسي وعسكري، ومعاوية كذلك، خليفة على ما تحت يده من أمصار له فيها نفوذ عسكري وسياسي.

لكن وباستعراض جزء يسيركما رصد في هذا السياق نجد أنه تم الاتفاق على اختيار حكمين (عمرو بن العاص الحليف القوي لمعاوية عن أهل الشام، وأبو موسى الأشعري – المحايد من قبل الجمل –عن أهل العراق).

في الواقع كان من الواضح عدم رضا عليّ عن اختيار أبي موسى الأشعري وأنه قد تم فرضه عليه فرضاً، لكن هل من المقبول في نفس الوقت أن يكون عليّ منتظراً لنتائج إيجابية من هذا التحكيم الذي تم فرضه هو الأخر عليه، قبل فرض من سيكون ممثلاً عنه؟ إن صحت الروايات التي تشير لذلك والتي غالباً تم إنتاجها لاحقاً.

لقد جاءت صيغة التحكيم التي ننقل بعض مما جاء فيها وروى البلاذري نصها في كتابه أنساب الأشرف كالاتي" «**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضي عليّ على أهل العراق ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله وبيننا كتاب الله فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما يحيي ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله فإنهما يتبعانه، وما لم يجداه في كتاب الله نصا، أمضيا فيه السنة العادلة الحسنة الجامعة غير المفرقة. والحكمان عبد الله بن قيس، وعمرو بن العاص. .....وأن أجل القضية إلى شهر رمضان. فإن أحبا أن يعجلاها دون ذلك، عجلا؛ وإن أحبا أن يؤخراها من غير ميل منهما، أخراها** [١٠٨]". هذا نص البلاذري والذي من الواضح فيه أمران.

الأول: أنه تم تجاوز ما يفيد أو يتعلق بالقضايا الرئيسية العالقة (سلطة| خلافة| قصاص| ترتيبات قبلية| تقسيم نفوذ ومناطق ...إلى أخرة مما يتم التنسيق بشأنه بعد المعارك العسكرية.

الثاني: إفساح المجال أمام تأجيل عملية التحكيم (القضية كما ذكر) لحوالي ثمانية أشهر، وإن رأى الحكمان تعجيلها عجلاها وإن أحبا تأخيرها أيضا فذلك مقبول.

---

[١٠٨] البلاذري، أنساب الأشراف، ج٢، ص ٣٣٥.

وهذا الكتاب يكاد يجتمع على ما فيه أيضاً الطبري –نقلاً عن أبي مخنف–واليعقوبي والمسعودي والدينوري وابن أعثم وابن الجوزي [١٠٩] وغيرهما [١١٠].

ومع تجاوزنا لوجود نوع من عدم الجدية في تحديد مكان الاجتماع سواء دومة الجندل أو أذرح – والمكانان بعيدان عن العراق وقريبان من الشام (الأردن تحديداً) – نلحظ أن الروايات لم تتطرق لموضوع النزاع الذي يبحثه الحكمان ، فيقول الطبري " **يرفعا ما رفع القرآن ، و يخفضا ما خفض القرآن**" [١١١] ، بل لم يرد نقاش حول قضية القصاص التي حشد من أجلها معاوية معسكر الشام بأكمله ، بل أننا نتبين لاحقاً أن نتائج التحكيم بل وما اتفق عليه ، لم يعرف طريقه إلى التطبيق ، فعليّ سينشغل بمشاكل جيشه ومحاربة الخوارج فيما بعد ، و معاوية مشغول بإمارته في الشام ومحاولة استقطاب المزيد من القيادات القبلية الناقمة والتوسع تجاه مصر، بل أن عليّاً نفسه لاحقاً لم يحضر .

القراء (الخوارج/ المحكمة) واستخدام السلطة الدينية للنص والرواية إعلامياً

ذكر الطبري–أن القراء وافقوا على وقف القتال وأجبروا عليّاً على موافقتهم، في نفس الوقت الذي أشار فيه أيضاً عندما رجع عليّ من صفين إلى الكوفة انفصلت عنه جماعة من القراء – الخوارج–بمكان يعرف بحروراء، وخرجت عليه وآذنته بالحرب [١١٢] وهذا يعني أن هؤلاء لم يكونوا موافقين على وقف القتال والصلح منذ البداية، لذلك خرجوا على عليّ بن أبي طالب.

ومما يزيد الأمر غرابة، أن هناك روايات ذكرت أن الذي أجبر عليّاً على وقف القتال والصلح هو الأشعث بن قيس، مع كثير من أهل اليمن، وليس القراء وإنما هم –وعلى رأسهم عبد الله بن وهب الراسبي–أنكروا على الإمام عليّ قبوله التحكيم، ففي رواية لما حمل الأشعث بن قيس كتاب الصلح ليقرأه على الناس، ومر بطائفة من بني تميم وقرأه عليهم، قال له أخوان يقول الدينوري في كتابه " **اسمهما جعد ومعدان** [١١٣] " **لا حكم إلا لله**" [١١٤]. فهذه الرواية الصريحة التي تشير إلى أن الرجل الرافض للصلح هو من القراء –الخوارج–فيما بعد يثبت وجود احتجاج هذه الطبقة على مفهوم التحكيم.

---

[١٠٩] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الامم والملوك، ج٥، ص ١٢٣.

[١١٠] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٤، ص ٢٠١؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٣٥؛ ومروج الذهب ج٢ص، ٤٧١–٤٧٢؛ الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٩٤.

[١١١] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص: ١٠٥.

[١١٢] الطبري، تاريخ الر سل والملوك، ج٣، ص: ١٠٥.

[١١٣] الدينوري، الأخبار الطوال، ج١، ص ١٩٦.

[١١٤] الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣ص: ١٠٤.

أما الرواية الثالثة فمفادها أن عليّاً لما أراد إرسال ممثله للتحكيم المتفق عليه، أتاه رجلان من القراء (بعد النهراوان)، هما: زرعة بن برج الطائي وحرقوص بن زهير السعدي، وطالباه بالتوبة عن خطيئته، وبالرجوع عن التحكيم، والخروج إلى مقاتلة عدوهم، فقال لهما: " **إنكم قد عصيتموني في البداية، وأنه قد أعطى العهد ولا يستطيع نكثه** " [١١٥] فهذه الرواية تشير إلى أن القراء كانوا رافضين للصلح قبل أن يجتمع الحكمان.

كذلك تأتي رواية الإمام أحمد وابن أبي شيبة، ومفادها أنه لما أرسل أهل الشام مصحفا لأهل العراق، ووافق علي بن أبي طالب على عرضهم، جاءته الخوارج – وهم القراء أنداك– وأنكروا عليه فعلته، وطالبوه بالنهوض لقتال أهل الشام [١١٦].

أيضا يروي ابن حنبل والبخاري وابن أبي شيبة، أنه لما أرسل أهل الشام بمصحف إلى عليّ بن أبي طالب، ودعوه إلى الاحتكام إليه، وقالوا له: بيننا وبينكم كتاب الله: " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون "–قال علي: نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله. فجاءه القراء–الخوارج – و انكروا عليه فعلته [١١٧] .

ويقول الفخري [١١٨] "**أن الخوارج احتجو على عليّ** "[١١٩]، قالوا له: أنت فرّطت في حفظ الثغر–يعني ثغر الشأم–بتحكيمك الحكمين، فأنت مخطئ مفرّط، وليس لك علينا طاعة: فأشار عليّ أنه غلب رأيه [١٢٠] وكان ذلك سبب الحكمين.

لتمضي الروايات في الزعم بأن الأشعث بن قيس والقراء–دعاة وقف القتال–اختاروا أبا موسى الأشعري، فلم يقبل عليّ في البداية، لكن وفي ظل إصرارهم اضطر للموافقة.

وذكر نصر بن مزاحم عن جابر. قال سمعت تميم بن جذيم يقول: لما أصبحنا من ليلة الهرير. نظرنا فاذا أشباه الرايات أمام صف أهل الشام وسط الفيلق من حيال معاوية، فلما أسفرنا

---

[١١٥] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج٣ ص: ١١٣ .

[١١٦] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧ ص، ٢٩١.

[١١٧] البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب إذ يبايعونك تحت الشجرة؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج٧ ص، ٢٩١، المرجع السابق ج٢ ص، ٢١٦–٢١٧.

[١١٨] في الآداب السلطانية والدول الإسلامية.

[١١٩] انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٧ص، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، بيروت المكتبة العلمية، د ت، ج٣ ص١،٢.

[١٢٠] الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ج١، ص ٣٩.

فاذا هي المصاحف قد ربطت على أطراف الرماح، وهي عظام مصاحف العسكر، وقد شدوا ثلاثة أرماح جميعاً. وقد ربطوا عليها مصحف المسجد الأعظم يمسكه عشر رهط([١٢١]).

قال أبو جعفر وأبو الطفيل. استقبلوا علياً بمائة مصحف، ووضعوا في كل مجنبة مائتي مصحف. وكان جميعها خمسمائة مصحف. قال: أبو جعفر. ثم قام الطفيل بن أدهم حيال عليّ وقام أبو شريح الجذامي حيال الميمنة. وقام ورقاء بن معمر حيال الميسرة. ثم نادوا يامعشر العرب الله الله في نسائكم وبناتكم. فمن للروم والأتراك. وأهل فارس غداً إذا فنيتم. الله الله في دينكم. هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال عليّ: اللهم إنك تعلم انهم ما لكتاب يريدون. فاحكم بيننا وبينهم إنك انت الحكيم الحق المبين. قال فاختلف أصحاب عليّ في الرأي، فطائفة قالت القتال وطائفة قالت المحاكمة الى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب وقد دعينا الى حكم الكتاب: فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها، وذكر نصر أنهم رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل. ورفع مصحف دمشق الأعظم يحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح، ونادوا: يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم. حيث أقبل أبو الأعور السلمي على برذون له أبيض. وقد وضع المصحف على رأسه ينادي: يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم.

و ربما نميل لطرح الدكتور عبد العزيز الهلابي في أن القراء أو المحكمة يتحملون مسؤولية وقف القتال و التحكيم و تعيين أبي موسى الأشعري حكماً، ما هي إلا (فرية تاريخية) تم إيجادها لاحقا واقحامها في مصادر التاريخ لأسباب دينية وسياسية [١٢٢] .

إذن ومع هذا الكم الذي يشير لنصوص وروايات تؤكد قبول عليّ للتحكيم بعيداً عن ضغط القراء، ومع هذا التضاد وعدم الحسم يمكننا التساؤل هل كان القراء نتاجاً مقبولاً تاريخياً من قبل المؤرخين للتسويق بعدم مسئولية عليّ وللخروج من الأزمة؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في ما نحاول قراءته في هذا السياق أن الإمام عليّ وبعد قبوله التحكيم واجه مشكلتين رئيسيتين ، الأولى أن هناك مجموعات قبلية وجدت نفسها بعد أن درجت على الانخراط في الفتوحات و تثبيت النفوذ وكسب الغنائم والحصول على المميزات ، وبعد أكثر من عام على أحداث معركة الجمل ، لم تتحقق لها أية مكاسب ، بل حتى القبول بمبررات للخروج من المعركة بعد صفين لم تستطع السلطة تقديمه بصورة مقبولة لهذه المجموعات القبلية ، كما لا يبدوا لنا من خلال قراءتنا للروايات والمصادر التاريخية أن المجموعات (القبلية وكذلك القراء) كانت لها في البداية مطالب سياسية أو أيديولوجية معينة ،

---

[١٢١] نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٤٧٨

[١٢٢] الدراسة بعنوان: القاء الضوء على الدور المزعوم للقراء في معركة صفين، مجلة كلية الآداب و العلوم الانسانية ، جدة، م٤، ١٩٨٤.

بل كانت مجموعات استطاعت قراءة الواقع الموجود و كانت ناقمة منه وغير راضية به ، وعليه فإن كافة الاحتجاجات التي ستخرج معلنة عن نفسها لاحقاً في معسكر الإمام – والتي صدرت من طائفة القراء| الخوارج – إنما أتت كردة فعل وتعبير عن عدم القبول بنتائج التحكيم الدعائية – ومعطياتها التسويقية – أدركت أنها لن تفيد، وأنها خرجت بلا نصر معنوي أو مادي ولا غنائم ، من هنا كان إعادة إنتاج وتشكيل صورة هذه الفرقة في الرواية التاريخية يجب أن يكون بعيداً عن هذه القراءة التي ستدين بلا شك جبهة الإمام عليّ ؛ فظهور هذا المشهد الانتقادي أو المسائلة ، كفيلة بخلق حالة تاريخيه وانتاج مشهد روائي مختلف عما هو مشاع.

إن السرد التاريخي تجاه اتهام المُحكمة أو القراء في حقيقته جاء من منطلق رؤية أيديولوجية، حيث أن هذه الطائفة لاحقاً احتاجت صياغة تاريخية جديدة، صياغة دعائية شوهت مطالبها وحقيقة خلافها مع الإمام، فكان أن تم إلباسها أطروحة رفض التحكيم عقائدياً (الخوارج).

إن الأصل المباشر للمنتج الإعلامي في صفين هو الخوارج، بعد أن عجزت منظومة السلطة عن تحقيق انتصار عسكري أو حتى معنوي مقبول، خصوصاً مع رفض وعدم قبول ما عرف لاحقاً بالقراء لما روجته بعض الأصوات دعائياً من أنه وبعد هذه الحرب الدموية الملحمية وبعد مفاوضات –لا طائل منها في أرض المعركة–سيجتمع الحكمان بعد ثمانية أشهر للوصول لحل القضية المطروحة (مع عدم تحديد ماهية القضية، خلافة – سلطة–قصاص... إلخ)

ومع استمرار السلطة في العجز عن تقديم مبررات منطقية، فإن التصعيد التاريخي لاحقاً وحصر هذا الانشقاق القبلي المبني على دوافع سياسية ودينية لفئة معينة يتم إلباسها كافة الاخفاقات والسلبيات التي نتجت جراء فشل قضية التحكيم.

وبهذا المخرج يصبح الخوارج (مصدر الشر المتخيل في الرواية التاريخية الإسلامية فيلقي عليه كل الأطراف أوزاره ويصبح المؤرخون ممتلكين لقدرة انقاذ جميع الأطراف المقدسة) في هذه القضية.

بين (على / ومعاوية – الحسن بن علي / ومعاوية)

إن أكثر الروايات الموثوقة لا تظهر لنا الإمام عليّ في وضع معارضة شديدة لعملية وقف القتال أو القبول بها، لكن كم النصوص والروايات اللاحقة التي صورت شكل ومشاهد الضغوط والتهديدات له للقبول بها قد توضح لنا مدى إصرار الرواية والنص بل والمؤرخون على تقديم صورة استباقية – تسويغية وتبريرية لما سيقع في المستقبل من فشل معسكر العراق، عموما

وللدلالة على زعمنا هذا ربما يمكن إجراء مقارنة بسيطة بين أقرب مفاوضات أخري تمت بين المعسكرين في ظروف سياسية وعسكرية متشابهة، فكيف جرت وماذا أفرزت؟

ففي العام الواحد والأربعين هجرية تواجه معسكري أهل العراق وأهل الشام مرة أخرى، لكن هذه المرة كان أهل العراق بقيادة جديدة (الحسن بن عليّ) في مقابل معسكر الشام بنفس قيادته السابقة معاوية بن أبي سفيان، حيث يقول ابن سعد في طبقاته " [١٢٣] حضر الطرفان ويقصد الحسن ومعاوية والتقيا وسلم الحسن لمعاوية بالخلافة وسارا حتى قدما الكوفة فنزل الحسن القصر ونزل معاوية النخيلة [١٢٤] بعد أن اتفقا على الاتي:

١. يسلم معاوية للحسن بيت المال
٢. لا يسب عليّ وهو يُسمع
٣. يحمل إليه خراج فسا ودرابجرد من أرض فارس كل عام إلى المدينة ما بقي.

أما ابن خياط فيقول " سنة إحدى وأربعين اجتمع الحسن بن عليّ بن أبي طالب ومعاوية بمسكن من أرض السواد فاصطلحا وسلم الحسن بن عليّ إلى معاوية كما يرصد لنا ابن اعثم الكوفي في مشهد أدق بنود الاتفاق[١٢٥] الذي جري ومن ثم وبعدها ذهب معاوية بنفسه وأخذ البيعة من الحسن [١٢٦] .

حيث يقول سار معاوية في جيشه حتى وافى الكوفة، ثم أرسل إلى الحسن فدعاه، إلى البيعة فأقبل إليه الحسن فبايعه [١٢٧] ، و يقول ابن كثير" **تواجه الجيشان وتقابل الفريقان فانتهى الحال إلى أن خلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الملك إلى معاوية** " [١٢٨] .

---

[١٢٣] الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (الطبقة الخامسة فيمن قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أحداث الأسنان)، تحقيق، محمد بن صامل السلمي، مكتبة الصديق، الطائف، الطبعة، الأولى، ١٩٩٣ م، ج١، ص ٣٢٢.

[١٢٤] ابن سعد، الطبقات الكبرى، الطبقة الخامسة، ج١، ص ٣٢٢.

[١٢٥] أولا: أن يسلم الحسن ولاية أمر المؤمنين.

ثانيا: ليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده عهدا، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين.

ثالثا: الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم.

رابعا: أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم.

خامسا: لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت النبي صلّى الله عليه وسلم غائلة سرا وعلانية، ولا يخيف أحدا منهم في أفق من الآفاق.

[١٢٦] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٤، ص ٢٨٩.

[١٢٧] ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج٤، ص٢٩٢.

[١٢٨] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص ٢٣.

هكذا إذن في اطر زمنية وبنود محددة جرى الاتفاق وحضر معاوية بنفسه لتأكيده، وأخذ البيعة مما يعكس لنا بدقة مشهداً واعياً لجيوش وقادة وصراع عسكري بالأساس وكيف أجبر من يمتلك الحسم العسكري (معاوية) الأضعف عسكرياً والمشكوك في ولاء كثير من جنده وزعاماته القبلية (معسكر الحسن) على القبول بما جاء في الاتفاق" [١٢٩].

مشهد مفاوضات صفين: ظهر عدم وضوح قدرة أحد الطرفين على الحسم العسكري / جرت مفاوضات غير محددة المعالم بعد وقف القتال/ تم الاتفاق على التحكيم لاحقاً في أرض غير أرض القتال/ الشرعية والسلطة والقوة لم تنعكس على واقع ونتائج الاتفاق والتحكيم فكل طرف بقي على موقفه الذي كان عليه قبل القتال/ وثيقة المفاوضات وبنودها ...مشوشة ...ملتبسة ..... لا تؤدي ...لنتائج عينية أو تغيير مرتبط بنتائج المعركة

مشهد مفاوضات التنازل عن الخلافة: ظهر وضوح قدرة معاوية على الحسم العسكري/ تم الاتفاق على بنود واضحة جرى الاتفاق عليها، كان أهمها تسليم الحسن بخلافة معاوية/ تم اللقاء وجهاً لوجه بين الحسن ومعاوية وتسلم الأول على الأخير بالخلافة/ انعكاس القوة والانتصار لمعسكر معاوية – فتنازل الحسن وأصبح هناك واقع جديد سياسياً وعسكرياً فرض نفسه على الجميع وهو أن معاوية الخليفة الشرعي بلا منازع / تنازل الحسن واعتلاء معاوية سدة الحكم وتنصيبه خليفة للمسلمين، مع الاتفاق على حقوق مالية استثنائية للحسن من بيت المال

هكذا إذن نستطيع أن نستشف أن المفاوضات [١٣٠] الأولى التي جرت في التحكيم لا تتناسب مع المشهد الذي كان موجوداَ، وأنها في النهاية لم تنتج أي معطى حقيقي مرتبط بالمعركة، بل غابت القضية ولم تطرح أية بنود لحل الواقع أو حتى إنهاء إشكال قتلة عثمان، أما مفاوضات الحسن ومعاوية اللاحقة فهي الشكل الأكثر إنتاجاً لمعطيات حقيقة تتناسب مع حجم المعطيات السياسية والعسكرية، التي أنتجت لنا في النهاية معطى حقيقي تحقق على أرض الواقع، على إثره جاء تنازل الحسن وتصدر معاوية المشهد التاريخي بخلافته.

الخاتمة

صفين بين المأثور والتاريخي والدعائي:

---

[١٢٩] ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٧.

[١٣٠] في إطار التفسيرات الموضوعة لعملية اجتماع الحكمين وما دار فيها يمكن النظر لدراسة الدكتور أحمد الحسن إشكالية الخلافة في حوار التحكيم ٦٥٧/٣٧، المؤرخ المصري دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة، مجلة علمية محكمة، قسم التاريخ جامعة القاهرة، العدد الأربعون، الجزء الثاني، يناير ٢٠١٢.

إن المصادر الإسلامية وتراكمية الروايات حول واقعة صفين والتحكيم والتي جاء أغلبها في فترة متأخرة بعد العصر الأموي ، وما اعتلاها من ملابسات وتساؤلات غائبة ، قد نستطيع من خلالها استشفاف صورة الصراع الفكري والديني التي جرت في الأزمنة اللاحقة ، لأهداف مختلفة ولخدمة مواقف دينية ومذهبية بالأساس ، حيث تم انتاج صورة مشوشة لصفين والقبول بالتحكيم مليئة بمؤثرات أخلاقية ودينية وشواهد غيبية وروايات ونصوص منتقاه لإدانة طرف و اتهام طرف أخر ، ولاشك وإن كان هناك حرص في أن تكون الكتابة اعتذارية لموقف عليّ إلا أن أطرافاً أخرى كانت مهتمة بحماية كل أطراف الصراع أيضاً وفي حالة تقديسية – ماعدا الخوارج– كما أن التفسير المنطقي لحادثة التحكيم كما أشرنا سابقاً خلال عرضنا يقودنا لمجموعة من النتائج التي تغاضت المصادر والمؤرخون عن ذكرها ، والتي من أهمها أن القبول بالتحكيم كان من نتائجه (خروج جزء من جيش عليّ ضده – فقدان عليّ لجزء من شرعيته – وهو ما صورته بعض مصادر التاريخ من انتظار عليّ لمكاسب سياسية أو عسكرية بعد وقف القتال)

كذلك يمكن القول أن مشهد القبول بعملية التحكيم بعد رفع المصاحف تم إنتاجه لاحقاً لكي يكون ترساً يقف خلفه الأشخاص المقدسون (عليّ ومعاوية) حيث استطاعت النصوص والروايات التاريخية تقديم فكرة مفادها المتنازعون يسلمون الأمر للقرآن ويتقيدوا بحكمه ، ولا شك أن معظم القراءات في تاريخ الخوارج (القراء) فيما قبل تؤكد أن هذه الفرقة وضح شكلها النهائي بعد قرار عليّ اختيار المحكمين ، ففي صفين هم القراء ، وأثناء وقف القتال هم المحكمة ، وبعد القبول بالتحكيم الحرورية ، ومن ثم في نهاية الأمر هم الخوارج بعد فشل التحكيم ،وعدم الخروج منه بنتائج مقبولة ، هذا باختصار عرض بسيط ربما يوضح لنا اهمية الخوارج كجزء من الصورة التاريخية التي تحتاج أن تصنع مناطاً خاصاً بالشر في وسط الصراع المقدس(وإن تكفل الدكتور محمود إسماعيل بالتصدي لموقف الخوارج بشكل جامع في كتابه قضايا في التاريخ الاسلامي منهج وتطبيق) حيث فكك بشكل جلي هذه المشكلة[١٣١] ...لكن.

تبدو المشاهد النهائية لقراءة حقيقة التحكيم التي جاءت إثر وقف القتال بصفين لتؤكد على حقيقة أن التحكيم لم يكن مطلوبا منه انجاز حقيقي وانما كان المطلوب منه مخرج دعائي من واقع المعركة فلو كانت هذه المفاوضات حقيقية لكانت الأسئلة المطروحة ، كيف سيسلم معاوية السلطة ، والقبول بخلافة عليّ وكيف سيقبل معاوية التغاضي عن دعوته التي حشد لها

---

[١٣١] انظر محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الاسلامي – منهج وتطبيق، تراجيديا التحكيم وموقف الخوارج، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨١م

معسكر الشام (القصاص من قتلة عثمان) والاكتفاء بما سيفرضه عليه المنتصر الامام عليّ ، الذي كان مطالباً كونه يمثل السلطة الشرعية للخلافة أن يبرر الموقف ويحتوي الانشقاقات والأصوات التي بدأت تتعالي رفضاً له ، فكان الاتجاه نحو إنتاج المؤثرات الدعائية لعملية للتحكيم ومحاولة تفتيت وحدة هذه الأطراف التي بدأت تتشكل كلها في موقف موحد لرفض نتائج هذه المعركة التي لم ينتصر فيها ، أيضاً ربما فات المصادر التاريخية التي تناولت وثيقة التحكيم أن النصوص التي صيغت أياَ كان ما فيها فلن تخدم عليّ ، بل معاوية ، ذلك لأن عليّ لم يكن في حاجة أن يستند على نصوص تؤكد شرعيته، بينما معاوية وحده هو من يمكنه الاستناد على النص في الوثيقة لدعم مطالبه إن دعت الحاجة لذلك لاحقاً .

وربما نجحت المصادر والنصوص التاريخية في إظهار القبول بالتحكيم بأنه قبول بسلطة الديني علي السياسي الذي لم يكن عليّ ليرفضه أياً كانت النتائج (النزول على حكم القرآن) ، لكنها وعلى سبيل المثال تغاضت ورفضت أن تنتج لنا مشهداً أو نصا تاريخياً يفسر ويجيب عن عدم رصد واقع الرفض المجتمعي والقبلي والخسائر الكبيرة للمعركة ، بل ورفض البسطاء من معسكر العراق لما آلت له نتائج القبول بعملية التحكيم الدعائية حيث يروي الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء تساؤل شاب (لم يكن صحابيا أو زعامة قبلية أو حتى قيادة عسكرية) لعليّ وهو يخطب فوق المنبر بعد أن بلغه فشل المفاوضات والحكمين ،" **قال علي كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فعصيتموني، فقال الشاب إنك والله ما نهيتنا ولكن أمرتا ودمرتنا** " [١٣٢].

إن من غير المنصف ولا الحقيقي ، أن يقدم مشهد رفع المصاحف و التحكيم وكأنه رمز المكيدة والخدعة والانحطاط الأخلاقي الأكثر بروزاً ودرامية في النص والرواية التاريخية الإسلامية بمستواها الأقدم والأسبق ، فالشواهد تثبت أنه كان هناك قبول وإجماع قبلي واسع على ضرورة إنهاء القتال ووقف هذا الاستنزاف والخسائر في الأرواح والأبدان ، ولم يكن ثمة أمل في حسم القتال بهذا الوضع لمصلحة طرف ، بعد هذا الاستئصال الدموي الرهيب للقيادات والزعامات و الرموز ، لذا كانت دلائل رغبة الاطراف (بعد اتضاح مدى خسائر كل طرف وهذا الكم الهائل من القتلى) في وضع حد لهذا الصراع الدموي الرهيب ووقف استئصال ما بقي من الجيشين ، هي المنتج الحقيقي الواقعي بعد عملية رفع المصاحف بعيداً عن أنها نتاج مكيدة من عمرو بن العاص أو معاوية[١٣٣].

---

[١٣٢] الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص ٥٣٠.

[١٣٣] وعلية فان فكرة الخديعة تأتي كفكر متناسقة مع الاحتياجات الايديولوجية للسرد التاريخي ومثل هذا متكرر في الكتابات التاريخية الاسلامية

فالجميع بدا مستعداً لتقبل جميع الصيغ أياً كانت حدتها ، لكن ولأسباب ومبررات عقائدية وتاريخية كان على المؤرخين استكمال المشهد والخروج به من هذا الإطار المبتور ... لا نصر ولا هزيمة ....لا خليفة مطلق ولا تنازل من معاوية.....لا مكاسب ولا مغانم[١٣٤]....فقط ...ملحمة دموية مفتوحة بدون نهاية .....وإن كان علي ومعاوية قدموا تنازلاً للجماهير المحتشدة في صفين سواء المعسكر العراقي أو الشامي .....فقد كان على الرواية والنص أيضاً إنهاء هذا المشهد بإخراج مقبول ، فبعضهم حاول حماية الرموز والشخوص ملقيا اللوم على القراء (الخوارج لاحقاً) – وهم الوحيدون الذين كانوا لا يعولون على قدرة التحكيم في إنهاء الصراع– وطرف اخر حاول حماية عليّ ، وآخرون بذلوا جهداً في حماية معاوية وإن لم يكن فإلقاء التبعات بعيداً عنه ، بل حتى فشل المحكمين في الوصول لنتائج تم استغلاله لاحقاً إن أراد عليّ العودة للقتال كونه متحللاً من نتائج فشل التوصل لحل للآزمة.

لقد كانت صفين...التحكيم.... مأساة دموية هائلة صيغت نصوصها وأحداثها من قبل من تصدى لها سواء الاخباريون الاوائل أو الرواة والمؤرخون المتأخرون.... وبالتالي كان ولابد أن تتم نهايتها أيضاً بصورة ومؤثرات ومشاهد تراجيديه على نفس مستوى أهميتها التاريخية .... (مكر، خدعة، مكيدة، تجاوزات، سقطات أخلاقية، مؤامرات، تناقضات، ضحايا، عنف، عاطفة، تقديس) كل هذه المؤثرات جرى توظيفها بما يتفق مع ميل وهوى من صاغها وأنشأها.

([١٣٤]) وهي النظرية التي شكلت أرضية استند عليها بشكل واضح طه حسين في كتابة في كتابه الفتنة الكبرى " والتي بدا فيها ميل طه حسين لمعسكر على بشكل اضح فيصفه في أحد نصوص كتابة بالقول " يظهر الفرق واضحا بين مذهب علي في السياسة التي تخلص للدين ومذهب معاوية في السياسة الت تخلص للدنيا" انظر طه حسين، الفتنة الكبرى، علي وبنوه، ط١٣، القاهرة، ص١١٧